

مفاتيح الحاج

مقتبس من كتاب (طوفان محمد)

د. أحمد خيري العمري

مفاتيح الحاج

د.أحمد خيري العمري

مقتبس من كتاب

«طوفان محمد»

الطبعة الأولى

١٤٣٥هـ _ ٢٠١٤م

تلخيص: رضوى عامر
هبة عمرو

تصميم: شهد اصف





القرآن.. لأمة قائمة

www.quran4nahda.com
quran4qyam@gmail.com



تقديم د. وليد أحمد فتيحي

مفاتيح لأعماق عوالمنا الداخلية

حين قرأت سلسلة (كيمياء الصلاة) للدكتور أحمد خيري العمري، فوجئت بقدرة الكاتب على استخراج هذا الكم من المعاني المهجورة لأثر الصلاة في بناء الفرد والمجتمع، ونجاحه الكبير في استخلاص المعنى الإيجابي النهضوي لـــ (إقامة الصلاة) عندما تقرأ من خلال مجموع النصوص القرآنية وقراءة آثارها على الفرد والمجتمع.

وبعد أن تقبلت رسالة (كيمياء الصلاة) بأحسن قبول، مستشعراً معاني الامتنان لكاتبها المبدع، وبعد أن كانت لي رحلة بحثية خاصة مع فريضة الصيام وآثارها وحقيقة الصوم ومعانيه، وجدتني أسأل نفسي: هل الشعائر التعبدية يمكن أن تحمل كل هذا العمق والتلاحم مع كيان المؤمن والتأثير فيه واستنطاق جوارحه وروحه وعقله لإعادة بناء العالم وفقاً للدور المرسوم له كـــ (خليفة في الأرض)؟

وها أنا اليوم أجد إجابة جديدة من الدكتور أحمد خيري العمري ذاته فيما يتعلق بـــ (الحج).. إجابة تجعلنا نسلك نفس الطريق في التفكير في المعاني التي تبني الإنسان وتعينه على القيام برسالته.. إجابة تمدنا بـــ (مفاتيح) تفتح ما استعصى علينا فهمه من نسك الحج، كما تفتح أعماق عوالمنا الداخلية.

بـــ (مفاتيح الحاج) المقتبس من الكتاب الأكبر عن الحج (طوفان محمد)، يضيف الدكتور العمري إضافة نوعية جديدة إلى بنائه على طريق النهضة الذي بدأ بـــ (البوصلة القرآنية) وشمل (سيرة خليفة قادم)، (استرداد عمر من السيرة إلى المسيرة)، (الفردوس المستعار والفردوس المستعاد)، (سلسلة كيمياء الصلاة)، ورائعته الروائية (ألواح ودسر) ليثري المكتبة الفكرية المعاصرة بإبداعاته المتواصلة التي نسأل الله أن تؤتي أكلها في بناء جيل واعٍ قادر على القيام بأمانته والنهوض بأمته.

د. وليد أحمد فتيحي

لماذا نحج ؟

ولماذا نحتاج إلى مفاتيح في الحج؟

تعودنا أن لا نسأل هذه الأسئلة.

..تعودنا أن نرد على هذه الأسئلة على نحو يسكتها... كما لو أنه لا يحق لنا السؤال عن الشعائر والفروض ومعانيها..

تعودنا أن نتعامل معها على نحو يفرغها من المعاني المرتبطة بحياتنا اليومية، على نحو يحصرها بعيدا في زاوية تكفير الذنوب وتخفيف الضغط، بدلا من أن يجعلها وسيلة للبناء والقيام بما خلقنا للقيام من أجله..

هذه الأركان هي أركان الإسلام..ودورها الحقيقي هي أن تكون كذلك فعلا، أن تكون ركنا لنا، لبنائنا الشخصي القوي...

لكننا نعاملها للأسف كما لو كانت **عكازات نتوكأ عليها** ..

لقد حولناها إلى عكازات لأمراض النفس وأوجاع الروح.. ضمادات لجروحنا وكدماتنا..

ولأنها يمكن أن تكون ذلك فعلا، نسينا أنها تعالج

أيضـا.. وأنهـا تبنـي.. وتنيـر الـدرب..

فـي كل ركـن مـن أركان الحـج، فـي كل سـنة مـن سـننه، ثمـة مفتـاح، مفتـاح لا يفتـح لنـا فهـم هـذا الركـن أو تلـك السـنة فحسـب، بـل يفتـح لنـا أنفسنـا..يفتح لنـا عالمـا جديـدا..

دوما ثمة مفاتيح جديدة في الحج..

دوما ثمة «فتح» لا ينتهي أبدا..

* * *

لماذا يحج الناس؟

السؤال بسيط جدا.. وسيكون هناك ثلاثة أجوبة:

الأول هـو الغالـب حتمـا، وهـو مـا يجعـل النـاس يؤجلـون أداء فريضـة الحـج إلـى التقـدم فـي العمـر.. السـبب غالبـا هـو أن الحـج (**يكفـر الذنـوب**)، وهـذا يجعـل النـاس يريـدون أداءه بعـد أن أدوا (أكبـر قـدر ممكـن مـن الذنـوب)..

الحـج باعتبـاره غسـالة للذنـوب، ومصفـراً لعدادهـا، حقيقـة لا يمكـن أن ننكرهـا، فقـد صـح عنـه عليـه الصـلاة والسـلام: «**مَنْ حَـجَّ هَذَا الْبَيْـتَ، فَلَـمْ يَرْفُـثْ، وَلَـمْ يَفْسُـقْ، رَجَـعَ كَيَـوْمِ وَلَدَتْـهُ أُمُّـهُ**»).

لكنـه عليـه الصـلاة والسـلام لـم يقـل إن هـذا هـو (**المقصد**) مـن الحـج.. كمـا لـم تـرد أي إشـارة إلـى أن هـذا هـو المقصـد فـي القـرآن الكريـم.. وهـذه العبـارة «كيـوم ولدتـه أمـه» - وإن علقـت فـي العقـل الجمعـي عـن الحـج أكثـر مـن غيرهـا – إلا أنهـا **وردت فـي مناسـبات أخـرى**

وفـي أحاديـث صحيحــة أخـرى.

لكـن أن تعـود مـن الحــج **كيـوم ولدتـك** أمـك، لا يعنـي فقـط عودتـك بـلا ذنـوب.. **لا يعنـي فقـط المغفـرة..**

بل يعني **أن تكون قد ولدت من جديد..**

تعـود بـلا عُقَـدْ، أن تنظـر إلـى العالـم بنظـرة جديـدة، أن تكـون متحفـزا للتعلـم..

لا مسـتحيل فـي قامـوس مَـن ولـد للتـو.. لأن قاموسـه لـم يكتـب بعـد..

«كيـوم ولدتــه أمــه»، يمكـن أن تسـاهم فـي «يـوم تولـد الأمــة، مـن جديـد»..

*　　*　　*

الركـن، بالتعريـف، هـو مـا يسـتند عليـه البنـاء ويقـوم ليرتفـع.

تخيـل أنــك تبنــي بيتــا، وأن المهنـدس وضــع تصميمــا خاصــا لا يقـوم إلا علــى خمســة أركان..

لكـن المقـاول يخبـرك أنـه سـينفذ المشـروع علـى أربعـة اركان فقـط، لسـرعة التنفيـذ والعجلـة فيـه، أو للاقتصـاد فـي النفقـات.. ويخبـرك أن عليـك أن تتذكـر أن تضيـف الركـن، لاحقـا.. بعـد بضعـة عقـود..

هذا هو ما يحدث مع الحج.

*　　*　　*

ارتبــاط ركـن الحــج مـن دون كل الأركان بالاسـتطاعة

عبر «**من استطاع إليه سبيلا**» تجعلنا نجزم أن الفكرة، لو تأملنا فيها قليلا بمعزل عن فكرنا التقليدي، لوجدنا أنها **(تحتم) أن يكون الحج في أبكر وقت ممكن**.. فالاستطاعة – على الأقل في جانب مهم من جوانبها - هي القدرة البدنية التي تكون أكثر ما تكون في فترة الشباب..

وأداء الحج، **عند أول الاستطاعة**، أمر ينسجم مع أن دور الأركان في حياتنا **هو أكبر بكثير من دور غسل الذنوب من أجل تجديدها لاحقا..**

أن تحج عندما تستطيع، يعني أنك ستعود وفي استطاعتك أن تفعل الكثير..

لذا فإن فكرة الاستطاعة.. **تتناقض جوهريا مع فكرة التسويف والتأجيل..**

* * *

ثاني سبب يجعل الناس يحجون هو أن الحج **ركن وفريضة وأمر من الله وكفى..**

يحدث هذا مع الصلاة ومع الحج تحديدا بوضوح.. لأنهما أكثر (شعائرية) من سواهما..

التأكيد على أن العبادات مقصودة لذاتها، يعكس نوعا من الشك في عدم إمكانية الوصول إلى أجوبة شافية..

و هذا الشك، يعكس بدوره أمرا من اثنين:

الأول – التصور أن هناك ما يأمر به الله **دون أن يكون فيه حكمة..** وحاشا لله أن يكون ذلك.

الثانــي – التصــور أن **حكمــة الله تكــون خافيــة كليــا - وبشــكل مقصــود - علــى العقــل البشــري** الــذي خلقــه الله فينــا.. **وفــي هــذا مســاس لا بالعقــل وحــده. بــل بخالقــه** أيضــا.. بحجتــه علــى خلقــه.

لــن يتمكــن العقــل بالضــرورة مــن ســبر أغــوار كل الحكــم والمقاصــد الإلهيــة لشــعيرة مــا مــرة واحــدة، لكنــه ســيتمكن حتمــا مــن فهــم الكثيــر منهــا، لا يمكــن للحكمــة الإلهيــة لأمــر مــا أن تبقــى خافيــة طيلــة الوقــت..

نعم.. يمكن لنا أن نفهم المقاصد..

وأزعــم، أن هــذا ســيجعلنا نتعبــد أفضــل.. وأزعــم أيضــا، أن الزعــم بغيــر هــذا، يفــرغ عباداتنــا مــن معانيهــا..

* * *

الســبب الثالــث الــذي يجعــل البعــض يــؤدي فريضــة الحــج، هــو العاطفة..

البعــض يمتلــئ شــوقاً لــه عــز وجــل.. ويجــد فــي الحــج موطنــاً لإطفــاء هــذه الأشــواق وتلبيــة حاجاتهــا..

ويكــون ذلــك غالبــا عنــد مــن تيســر لهــم الحــج مــرات كثيــرة..

ومثــل الســببين الســابقين، لا يمكــن الاعتــراض تمامــا علــى هــذا الدافــع، **لكــن يمكــن حتمــا الجــدل بكــون هــذا ليــس هــو (المقصــد) للحــج.**

لكن، لماذا نحج إذن؟

ما هو الحج؟

قد يبدو الحج أنه مثل سفرة عادية ولكن إلى مكان مقدس. مكان غير عادي.. يبدو في الظاهر فقط..

أما في الداخل. في الجوهر.. فالرحلة الحقيقية ليست هي تلك التي نقوم بها عبر الطائرة.

رحلة الحج هي رحلة في داخل نفسك.. رحلة تبحث فيها عن ذاتك..

نعم.. أنت تنتقل في المكان.. في الجغرافية.. عبر خطوط الطول والعرض..

لكن هذا سهل.. الرحلة الأصعب هي تلك الرحلة الأخرى..

الرحلة في تلك القارة غير المكتشفة التي تقطنها دون أن تعرف عنها شيئا..

الحج هو **رحيل إلى العالم الآخر في داخلك..** إلى ذلك المكان الذي لم تفكر يوما في زيارته.. المكان الوحيد الذي لا يحتاج إلى تأشيرة ولا إلى جواز سفر، ورغم ذلك فإن الناس قد تغفل عن زيارة هذا المكان..

الحج هو رحلة **اكتشافك لذاتك ونفسك.. لمعنى وجودك..**

رحلة في الداخل تتناسق مع رحيلك إلى مكة خطوة خطوة.. يحدث تزامن بين الرحلتين على نحو استثنائي...

* * *

الحج هو مثل تلك الكشوفات الجغرافية التي قادت إلى اكتشاف (العالم الجديد)، لكنه يحدث في ذلك العالم الآخر الذي نادرا ما نفكر بزيارته.. العالم الذي في داخلك، وكشوفات الحج الجغرافية، **تستهدف البحث عن الموارد غير المستثمرة فيك**.. الحج يكتشف في داخلك **قارة جديدة، قارة اكتشافها يغير تاريخك الشخصي..**

كشوفات جغرافية، نعم..

وكما كانت تلك الكشوفات الجغرافية جزءاً من نهضة اوروبا، كذلك هذه الكشوفات. هي جزء من نهوضك أنت.. جزء من قيامك.. وعندما يلتقي نهوضك وقيامك مع نهوض وقيام الآخرين من حولك، فإن ذلك سيساهم في إنتاج نهوض وقيام يغير وجه البشرية ومسارها..

المقصد، ركناً من أركان الإسلام

البحث المعجمي عن أصل كلمة حج، سيقودنا إلى المعنى الأول للفعل حجج، وهو ما اشتق منه الحج، هو القصد..! هل هو مكان تقصده؟

نعم.. يبدو ذلك مناسبا.. فعندما تحج، فأنت تقصد مكانا بعينه.. تقصد مكة والبيت الحرام والمشاعر المقدسة..

للوهلة الأولى سيبدو هذا مناسبا جدا.. لكن، للوهلة الثانية، ستكتشف إمكانية أن يكون هناك المزيد..

ربما القصد هنا لا يرتبط بالمكان فحسب.. بل يرتبط بأهمية أن يكون لك مقصد في حياتك..

أن يكـون لـك هـدف فـي هـذه الحيـاة.. هـدف واضـح محـدد.

الحج يعني القصد؟

نعم.. يبدو ذلك أكثر اتساقا الآن..

أن يكـون ركنـك الخامس الركيـن، ركنـاً يبنـي في داخلـك (المقصد)..

أن لا تضيـع حياتـك سدى وعبثـا.. بـل أن تشـق طريقـك بنفسـك.. نحـو المقصـد..

* * *

يذكرني ذلك بـ «من استطاع إليه سبيلا»..

فـلا أجـد فيهـا هنـا الرخصـة المعهـودة، بقـدر مـا أجـد فيهـا **تحفيـزاً للاسـتطاعة..**

عندما تؤمن بهدف ومقصد..

وتعلم أن الطريق إليه وعر وصعب وموحش..

قـد تكـون (اسـتطاعتك) - حقـا - أقـل مـن القـدرة علـى تحمـل صعـاب هـذا السـبيل..

لكـن إيمانـك بالمقصـد.. إيمانـك بأنـك يجـب أن تقصـده.. يجعلـك تـروض اسـتطاعتك.. تروضهـا لتزيدهـا.. تزيـد مـن قدرتـك.. تعمـل علـى نفسـك لتقويهـا.. لتزيـد مـن اسـتطاعتك.. فيصيـر مـا لـم يكـن مسـتطاعا، فـي متنـاول يـدك..

مـع الاسـتطاعة، الأمـر لا يتعلق حقـا بقـدرات جسـدية أو

بدنيـة محـددة مسبقا ولا سـبيل لتغيير هـا..

مـع الاسـتطاعة، وعندمـا توضـع في السـياق الـذي وضعه القـرآن، أن يكـون علـى النـاس حـج البيـت «لمـن اسـتطاع إليـه سـبيلا».. يتحـول الأمـر إلـى مجاهـدة مـع نفسـك.. إلـى مغالبتهـا.. إلـى صـراع مـع (استطاعتك) لتكـون علـى قـدر **مـا كلفـك الله بـه..**

هذا هو التحدي الحقيقي..

البرهان والحجة

المعنـى الثانـي الـذي يتسـرب مـن لسـان العـرب ومعانيـه فـي لفظ (حجـج)، يقدم لنـا مفتاحـا آخـر مـن مفاتيـح الحـج.. ودليـلا إرشـاديا فـي تلـك الرحلـة..

«الحُجَّـة الدليـلِ البُرْهـان وقيـل الحُجَّـة مـا دُوفِـعَ بـه الخَصـم وقـال الأزهـري الحُجَّـة الوجـه الـذي يكـون بـه الظَّفَـرُ عنـد الخصومـة، والتَّحـاجُ التَّخاصُـم»

البرهان؟ الحجة؟ هل في ركن الحج معنى كهذا؟

نعـم.. فـي عمـق ذلـك الركـن، فـي أساسـه، هنـاك تلـك الحجـة التـي تقيمهـا علـى نفسـك..

الحجـة هنـا، ليسـت علـى خصمـك المعلـن.. الـذي تخوض حربـا معلنـة شرسـة ضده..

بـل علـى خصمـك الآخـر.. الـذي لا تعلـن قـط حربـك ضـده، ربمـا لأنـك تتجاهـل حقيقـة أنـه عـدوك.. أو تتعامـل معـه كمـا لـو كان حليفـا أحيانـا..

خصمك الآخر.. الذي هو أنت..

تحتاج إلى أن تقيم عليه الحجة..

ذلك الشخص الآخر الذي تنكر وجوده دوما.. ذلك الشخص المليء بالشكوك الذي نادرا ما تظهره أمام أي شخص..

ذلك الشخص المليء بالرغبة في الهروب من كل مسؤولية.. بالكسل.. بالتنصل من كل شيء..

ذلك الشخص الذي يظهر في السر.. بعيدا عن أعين الجميع..

هو من يحتاج إلى ذلك البرهان..

هو من يجب أن يغيره الحج..

هو من يجب أن تولد من جديد وقد تخلصت منه..

مفتاح النية

كل عمل ننجزه في حياتنا، يجب أن يكون مدفوعا بنية ما، النية هي القصد والإرادة.. وهي أصل في كل عبادة من العبادات في الإسلام .. وهي أصل في الحج كذلك.

هل يمكن لمن يحج أن لا ينوي؟ أليس ذلك تحصيل حاصل؟ ألم يكن ذلك في (نيته) وهو يتم الإجراءات؟

بالتأكيد هو يريد الحج ..

النية الكامنة وراء أداء الحج- عندما يكون حجا

مبرورا- تشبه النواة في الذرة..

إنها في الأصل موجبة، **دافع إيجابي للعمل والتغيير والبناء..** ولكن هذا الدافع محاط بدوافع سلبية تحوم حوله وتريد أن تثبطه أو تحرفه عن مساره أو تحيده عن العمل الإيجابي على الأقل..

كلما كانت هذه النية إيجابية أكثر، **كانت قادرة على تحرير طاقة هائلة في داخلك لتجعلك تعمل وتنجز..**

ومثل كل مصادر الطاقة، هذه الطاقة معرضة لأربعة احتمالات:

أن تستخدم فيما كانت من أجله..

أن تستخدم في **هدف جزئي،** قد لا يكون خاطئا بالضرورة، لكنه هدف مختزل جدا ولا يعبر إلا عن نسبة بسيطة جدا من (الهدف الأكبر)..

أن لا تستخدم على الإطلاق.. أن لا تتحرر أي طاقة من التفاعل.. أن يمر الأمر كما لو أنه لم يحدث أصلا.. لا تفكر في مقاصده ودوافعه وأسبابه..

أو أن تستخدم كما يجب..

لكن ما هي النية في الحج أصلا؟

إنسان جديد.. ليس أقل من هذا!

وهذا الإنسان الجديد، لا يمكن أن يأتي، ما لم تحتو تلك النية، **على أثر لإبراهيم** عليه الصلاة والسلام..أن تتمثل رحلة إبراهيم وخطواته في ذلك الدرب..أن تتيقن أنك على خطاه..وأنك في حجك هذا إنما تلبي نداءه

البعيد العميق القريب.

هل يعقل أن تنوي الحج وتنسى أنك إنما تلبي نداءه العتيق العريق؟ وأنه أول من أذن في الناس بالحج؟ وأن البيت الذي تقصده قد بناه إبراهيم؟

إبراهيم المسلم الأول. الذي شق الدرب إلى الإيمان بالعقل. إبراهيم الذي حطم الأوثان. إبراهيم الذي وجد القلب المطمئن. الذي كان مستعدا للتضحية بكل شيء. الذي بنى.

الجوهر الحقيقي للنية هو الوعي بما يجب فعله.. بما يريده الله منك هنا.. وأن تؤمن بقدرتك على فعله..

* * *

مفتاح الميقات

الميقات فقهيا هو زمن العبادة ومكانها.

المكان هو المواضع الخمسة التي حددها الرسول عليه الصلاة والسلام.. والزمان هو الأشهر الحرم..

هذا (الزمان – المكان) الذي تدخله لتخوض هذه التجربة الجديدة هو **علاقة جديدة بين الأشياء..** أنت تدخل توا في واد خارج الأبعاد التقليدية.. تستحضر التاريخ، في لحظة فارقة منه، في مكان محدد على مشارف مكة، فيما يجب أن يكون لحظة فارقة من حياتك.. فيما يجب أن يؤثر على (المستقبل).. المستقبل **الذي تريد أن يتشكل على نحو أفضل بسبب مرورك في هذه المحطة..**

* * *

خمسة أماكن حددها عليه الصلاة والسلام لتكون (الميقات) اعتمادا على الجهة التي يأتي منها الحاج..

ذو الحليفة: وهو ميقات أهل المدينة ومن جاء منها. وبينها وبين مكة تسع مراحل وهو أبعد المواقيت عن مكة.

الجحفة: وهي ميقات أهل الشام ومصر ومن مر عليهما من غير أهلهما. وقد أبدلت اليوم برابغ.

يلملم: وهو ميقات أهل اليمن وتهامة والهند. ويلملم جبل صغير على بعد مرحلتين من مكة.

قرن المنازل: وهو ميقات أهل نجد والحجاز وهو جبل مشرف على عرفات على بعد مرحلتين منه.

ذات عرق: وهي ميقات أهل العراق وسائر أهل المشرق وهي قرية على بعد مرحلتين من مكة وسميت بذلك لوجود جبل فيها يسمى عرقا يشرف على وادي العقيق.

تدخل المكان من هنا، في توقيت محدد، تغادر إلى هناك، تقوم بعمل شيء محدد سلفا، كل شيء سيكون حسب خطة واضحة محددة.. تحركاتك.. وأوقاتها..

ربما كانت فكرة الخطة، بمعزل عن تفصيل كون ذلك خطة لأي شيء، أن تؤمن **بضرورة التخطيط.. أن تؤمن بالخطة.. جزء من المنافع التي سيرجع بها الحاج إلى موطنه!**

* * *

يسمون من جاء من خارج الحرم (الآفاقي).. وأغلب

مسلمي اليوم هم آفاقيون أي يأتون من آفاق مختلفة وبعيدة..

لكن ما هو مهم هنا.. **هو أن يجعلهم الحج يفتحون الآفاق.. أن يرتقوا في الآفاق، بعد رحلتهم هذه..**

أن يجعلهم الحج، قادرين على ارتقائها..

مفاتيح الإحرام

عند الميقات تبدأ بالإحرام. والنية جزء من هذا الإحرام.. إنه اللحظة التي تبدأ فيها النية بالتفعيل..

لماذا الإحرام؟

الإحرام لأنك هنا، ستصير **جزءا من البيت الحرام..** ستصير جزءا من هذا البيت العظيم الذي وضع للناس...تكاد تصير حجرا من أحجاره..كما لو أن حياتك وأعمالك كلها ستوجز لتكون إضافة حجر على بناء يجب أن يكون ارتفاعه مستمرا..

ستتخلى عن ذاتك القديمة، وتصير جزءا من المكان الجديد وقد دخلت في طور الإحرام.

أصل تسمية البيت الحرام، والمسجد الحرام، يرتبط بكونها (محرمة) على المشركين..

واليوم، ها أنت تصير جزءا من هذا.. محرم على الشرك..

اليوم الشرك لن يدخل نفسك أو جسدك أو عقلك..

لكنك لم تشرك ولم تسجد لصنم قط..ستقول لنفسك أولا.. ولكن وأنت **(تحرم) ستكتشف أن الأوثان التي عليك أن تتخلص منها خفية في داخلك.. أخطرها هي أنت، وأخبثها هي تلك التي تفلسف لك أخطاءك وأهواءك، وأكثرها رواجا هي تلك التي تجعلك (عبدا) - لا يدري بعبوديته - لذلك الملأ المسيطر المتحكم برأس المال..**

وكما البيت محرم فيه الدم، فإن الصراع في داخلك، بينك وبين شياطينك، بينك وبين نفسك قد انتهى .. **وستجرب حقا وعمليا أن تكون كلك هذه المرة، لله!**

* * *

ومن واجبات الإحرام، ارتداء ملابس الإحرام البيضاء - للرجال فقط. أما النساء فيحرمن بملابسهن العادية ولكن مع التأكيد على كشف الوجه والكفين_.

ملابس الإحرام ستذكرك بالكفن .. إنها فرصتك وأنت **لا تزال تملك خيارك بأن ترتدي كفنك لاحقا بعد أن تكون قد أديت ما عليك إلى أقصى حد ممكن.. هي فرصتك لكي يكون ما سيملأ الكفن أفضل!**

ملابس الإحرام، التي هي (الزي الموحد) الذي يلتزم فيه الحجيج جميعا تجعلنا نشعر كم نحن **متشابهون جدا..** مهما حاولنا أن نتميز، أو نتمايز، **ملابس الإحرام ستكون لنا بالمرصاد..**

لا علامة تجارية على ملابس الإحرام..

نعيش في مجتمعات استهلاكية تقوم بتكريس فكرة في داخلنا - أن الإنسان يقَيم بما يملكه من سلع..

لقد تم تحويل الإنسان إلى سلعة، سلعة تقيم بقدرتها الشرائية للمزيد من السلع، وتم إيهامنا بأنه لابد من أن تعبر العلامات التجارية عن نجاحك وعنك. **لكن ملابس الإحرام لا تخضع لهذا ..**

يحدث للأسف ما يؤثر على فكرة المساواة بين الناس أجمعين.

يمكن لك أن تحج (خمس نجوم)، وأن تسكن في برج مرفه، أن تكون وجبة طعامك تكفي لسد جوع عشرة جياع في هذا العالم.. لكن مهما حاولت.. **سيصل الأمر إلى ملابس الإحرام ولن تستطيع أن تميز نفسك بشيء..**

*   *   *

ملابس الإحرام، تحتوي أيضا على ما هو أكثر من ذلك .. إنها ليست مجرد زي موحد للحجيج يزيل عنهم فوارقهم الطبقية والعرقية. ولا هو مجرد تذكير بالكفن وبالآخرة..

ملابس الإحرام تتكون من: إزار، رداء، ونعلين. -للرجال فقط، أما النساء فيحرمن في اللباس الشرعي مع عدم الانتقاب-.

الإزار يلف به الخصر، والرداء يلف الجذع. ويشترط في كل منهما أن لا يكون (مخيطا)..

ومعنى أن لا يكون مخيطا أن لا يكون قد خيط على

نحو يفصل الجسم، كما مع القميص والسروال والجبة..

ملابس الإحرام هنا هي **رمز تلك الشريعة التي تلفنا..**

الشريعة التي تركنا عليها عليه الصلاة والسلام، بيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك..

هذه الشريعة تحيط بنا، تلفنا، إنها كل متكامل.. نسيج لوحدها.. وهي لا تقبل أن يكون فيها من سواها، لا يمكن لك أن (تصلها) بشيء من شريعة أخرى.. لا يمكنك أن (ترقعها) أو (تجملها) من منظومة ثقافية أو حضارية أخرى..

كذلك ملابس الإحرام.. نسيج لوحده.. دون أن يخيط .. لا يمكنك أن تصله بنسيج آخر.. أو تركب عليه قطعة أخرى..

أيضاً مع الإزار والرداء، تكون حريصا على أن يبقيا عليك.. تتمسك بهما.. تكون حريصا على ذلك كل لحظة..

كذلك الأمر مع الشريعة التي تركنا عليها عليه الصلاة والسلام.. لا ينبغي أن نطمئن قط إلى أنها قد (أحاطت بنا)، بل علينا أن نتأكد من ذلك كل حين.. أن (نأخذ الكتاب بقوة).. **لا أن نتركه مرتخيا سائبا ونحن مطمئنون إلى عدم سقوطه لأنه قد فصل وخيط ليكون كذلك..**

والبياض..

هل هو الصفحة الجديدة؟

هل هي راية الاستسلام ترفعها لله؟ هل هي الشريعة؟

هل هو الإشارة إلى استمرارية التطهير؟

* * *

قبل أن تحرم، يستحب لك أن تغتسل، أن تضع الطيب، أن تقص أظافرك وأن تزيل الشعر من جسدك..

لكن في لحظة دخولك الإحرام، سيصبح كل ذلك –عدا الاغتسال- من المحظورات.

لا يريد منك الله أن تكون قذرا حتما.. يمكنك أن تغتسل، لكن وضع الطيب محظور.. قد تشعر برائحة كريهة (ربما طبيعية أيضا) تنبعث منك.. لن يكون الحل بأن تضع العطر لتغطي على مصدر الرائحة الكريهة.. الحل أن تزيل مصدر الرائحة.. الحل بأن تواجه المشكلة باقتحامها.. إحرامك يحرم عليك الأقنعة.. أنت كما أنت.. **تغتسل نعم.. لكن بلا عطر ولا طيب.. أنت كما أنت.. والآخرون أيضا كما هم..**

عدم تقليمك لأظفارك.. أو إزالتك للشعر في جسمك أثناء الإحرام واعتبار ذلك من المحظورات، هو إعلان لك بأن عليك **أن تغير أولوياتك**.. الآن عليك أن توجه اهتمامك وحواسك لبعد آخر... ستترك (طبيعتك) تنمو، دون أن تعترض عليها..

ستكتشف كم هو مهم تحطيم الأوثان في داخلك..

ستفهم كيف أن **جسدك هذا وثن آخر تسكن فيه..** وأن مواجهتك مع (تقليم الأظفار) هي مجرد رمز صغير لمواجهة أكبر مع كل ما يجب تقليمه في علاقتك مع هذا الجسد..

لـن تصيـر راهبـا ينفـي وجـود هـذا الجسـد، فهـذا مجـرد وجـه أخـر مـن العبوديـة لـه..

لكنـك سـتنتصر علـى جسـدك.. سـتتعلم أن حربـك معـه ليسـت معـه تحديـدا.. بـل مـع أن يصيـر هـو المسـير لـك ولرغباتـك.. تريـد أن تسيطر عليـه.. أن تقـوده وتسوسـه.. لا أن يقـودك.. أنـت لسـت جسـدك. أنـت تسـكنه فقـط.. مجـرد أداة.. ولـن تسـمح لـلأداة أن تسـيطر عليـك..

*   *   *

وماذا عن إحرام المرأة؟

المـرأة تحمـل الشـريعة هويـة لهـا طيلـة أيـام السـنة، لقـد تشـرفت بالتكليـف بذلـك كمـا تشـرفت بدورهـا الكبيـر فـي الحمـل والإنجـاب. وكمـا تشـرفت أكثـر بـأن تعبـر عـن مكانتهـا إحـدى شـعائر الحـج تحديـدا كمـا سـنرى لاحقـا..

المـرأة ترتـدي طيلـة السـنة، مـا يميزهـا، مـا يعبـر عـن هويتهـا **وهويـة الأمـة بأسـرها..** قـدر آخـر شـرفها وكلفهـا..

لـذا.. لا ملابـس مميـزة لمـن ملابسـها مميـزة طيلـة أيـام السـنة!

مفاتيح لاءات الحج

«فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ»

ثـلاث لاءات، هـي جـزء مـن تدريبـك علـى ترويـض نفسـك وكبـح جماحهـا، فـي درب إخـراج أفضـل مـا فيهـا،

وتغييرها نحو الأفضل..

قد يبدو لك أن كلاً من هذه النواهي تختص بجانب مختلف عن الآخر.. لكن الحقيقة هي أن هناك رابطا يجمع هذه اللاءات مع بعضها.. ويجمع ما تمنعه وتنهى عنه..

* * *

الرفث هو كناية عن الجماع.. **هو هذه المنطقة من العلاقة بين الرجل والمرأة، تحديدا، المنطقة الجنسية من العلاقة بينهما..**

العلاقة الجنسية مرفوضة ومحرمة قطعا بين الزوجين في الإحرام.

لكن ليس هذا فقط. **كل ما يؤدي إليها، أو يحوم حولها، ولو بمجرد الحديث..**

(لا رفث)، لا تلغي علاقتك بالجنس الآخر، بل تجعلك تكتشف أبعاداً جديدة لهذه العلاقة لا تقل أهمية عن عمق العلاقة المعتادة بينكما.. **بُعد المودة والرفقة والصداقة.**

بُعد الحاجة الإنسانية المجردة تماما عن أي شهوة جنسية.

البُعد الذي يجعل آدم يحتاج إلى زوجه ليكتمل..

البُعد الذي يجعل إبراهيم يبقي على زوجه رغم الشيخوخة والعقم..

* * *

الفسوق هو العصيان والترك لأمر الله عز وجل

والخـروج عـن طريـق الحـق..

والفسوق، بما أنه كذلك، فهو محرم دوما..

لكـن فـي الحـج، هنـاك جانـب آخـر للفسـوق، يذكرنـا بالفاسـق الأول.. إبليـس ..

الفسـوق الأول كان رفضـا للخضـوع لأمـر الله. **كان خروجـا عـن طاعتـه، وعـن جمـع الملائكـة الطائعيـن..**

فـي الحـج هنـاك هـذا المعنـى الأعمـق للفسـوق .. أن تخـرج عـن هـذا الجمـع.

أي فعـل عامـد تفعلـه، تخـرج بـه عـن طاعـة الله.. ليس فقـط لحرمـة المـكان والزمـان، لأنـك دخلـت فـي طـور الطاعـة المطلقـة الـذي ستكتشـف مـن خلالـه قدراتـك وقـواك الخفيـة.. خروجـك عـن الطاعـة هنـا، أو فسـوقك، يعـرض كل هـذا للتخريـب..

والأهـم أن الفسـوق سيوقـف عمليـة ذوبانك فـي ال (نحن). ذوبانـك كفـرد، ذوبـان كل مـا تعتقـد أنـه يميـزك ويجعلـك أفضـل مـن الآخريـن.

ملابس الإحـرام توحـد هيئتك لكـي تسـهل عمليـة الذوبـان هذه..

لكـن الذوبـان الحقيقـي يبـدأ لحظـة التزامـك الطاعـة التـي يلتـزم بهـا الجمـع حولـك..

* * *

لا جدال..

لا شـك أن هـذه هـي الآيـة الأكثـر اسـتخداما مـن قبـل

متعهـدي حمـلات الحــج..

يسـتخدمونها فـي غيـر موضعهـا غالبـا لإسـكات كل مـن يطالـب بتنفيـذ مـا اتفـق عليـه مسـبقا..

لكن الآية لم تنزل لصالح هؤلاء حتما..

بـل أنزلـت كـي تقضـي علـى مـا **يمكـن أن يقضـي فـي داخلـك علـى اللانيـن السـابقين..**

فـي داخـل كل إنسـان، قابليـة للجـدال.. يمكـن أن توظـف فيمـا هـو خيـر.. ويمكـن أن توظـف فيمـا هـو شـر.

لكن، في الحج.. لا جدال!

لا سـلبا ولا إيجابـا.. لا اسـتخدام إيجابـي للجـدال فـي الحــج..

لأن الجـدال، هـو إيجابـي، **عندمـا يوجـه نحـو دعـوة (الآخـر).**

في الحـج ليـس من آخـر هنـاك.. إنمـا هـي ذات واحـدة، هـي الـ (نحـن).. مجـرد وجـود الجـدال فـي هـذا يعنـي أن الـ (نحـن) لـم تتحـقـق..

مجـرد وجـود (الحاجـة إلـى الجـدال) تعنـي أن (لا فسـوق) لـم تتحقق..

لكـن لا.. اتـرك مـن خـرق (لا فسـوق) يفعـل ذلـك لوحده.. لا جدال..

* * *

لاءات الحج الثلاث..

لا نافيـة للرفـث.. تكبـل الشـهوة فيـك لكـي تتمكـن مـن الإقـلاع فـي بعـد آخـر، تكتشـف أجنحتـك التـي لـم تعـرف بوجودهـا لكـي تتمكـن مـن اسـتخدامها والتحليـق بهـا لاحقـا أيضـا..

لا نافيـة للفسـوق.. تكبـل تلـك الـ (أنـا) المتمـردة الراغبـة فـي تـرك الطاعـة.. تقودهـا إلـى الـ (أنـا) التـي تولـد مـن خـلال الذوبـان والالتحـام مـع الـ (نحـن)..

لا نافيـة للجـدال.. لأن الجـدال يمكـن لـه أن يعطـل اللاعـين السـابقين.. لأن الـ (أنـا) التـي تبرزهـا آلـة الجـدال، تكـون خطـرة علـى عمليـة الذوبـان ككل..

لاءات الحج الثلاثة..

فـي الحـج، هـي جـزء مـن متطلبـات أهـم (لا) فـي حياتـك..

لا إله إلا الله..

مفاتيح التلبية

وقـف إبراهيـم ذات يـوم، ليـؤذن فـي النـاس بالحـج.. لـم يكـن هنـاك أحـد منهـم ليسـمعه مباشـرة..

وشـيئا فشـيئا.. جـاءت الـردود.. جـاءت الجمـوع تلبـي نـداء إبراهيـم..

علـى الـدرب إلـى الحـج.. يرفعـون أصواتهـم ليلبـوا نـداء إبراهيـم..

في كل خطوة من خطوات الدرب إلى مكة كأن ثمة نبياً مر هناك ملبياً.. رافعاً صوته..

يلبي نداء إبراهيم .. لبيك اللهم لبيك..

وفي كل خطوة هناك الملايين يقتفون آثارهم.. ويلبون!

* * *

لفظ (التلبية) يعني الإجابة، وأصلها من الفعل (لبب) لُبُّ كل شيءٍ ولبابُه خالِصُه وخِيارُه ولُبُّ الرَّجُل ما جُعِل في قَلبه من العَقْل.

التلبية إذن هي هذا الصوت الخارج من الأعماق .. يتصل بأعماق لبك، وبكل ما هو أنت حقا بعيدا عن القشرة والأقنعة وكل ما لا يلزم حقا..

أنت تلبي نداء إبراهيم من لبك، **لبك الذي هو حقيقتك..** هل تفعل ذلك حقا؟ أم أنك تلبي فقط لأن من يعلمك الشعائر قال لك أن تفعل ذلك ولم يخبرك بشيء مما في أعماق التلبية؟ لبيت فقط لأن من معك يلبون؟

أخشى أن عدم فهمنا لمعنى التلبية، قد يؤثر على تلبيتنا، فتكون مجرد كلاما بصوت عال.. كلام من اللسان والحبال الصوتية والحنجرة.. لا من أعمق الأعماق.

هناك في اللب، يوجد عمقك الذي قد يقضي البعض أعمارهم كلها دون أن يمروا به..

في اللب، خلاصتك وخير ما فيك، يوجد أعمق فج يمكن لك أن تخرج منه، لتلبي نداء إبراهيم..

* * *

واللب أيضاً هو ما في قلب الرجل من عقله! .. إنه **ذلك المزيج بين القلب والعقل..**

ما يميز شعائر الإسلام تحديداً عن الشعائر في بقية الأديان هو جزء مما يميز الإسلام نفسه.. أنه **لا يعد الدين موضعا لمخاطبة العاطفة فحسب، بل لمخاطبة الإنسان بكل ما فيه، من عاطفة وقلب واحتياجات..**

لا فصل حقيقة بين كل هذا في واقع الإنسان وحياته اليومية..

وهذه التلبية الصادرة من عمقك، يقول لك لسان العرب إنها نابعة من (ما في العقل من قلبك)!!

التلبية.. من العمق.. حيث يمتزج عقلك بقلبك..

* * *

ولبَّ بالمكان لَبًّا، وألَبَّ أقام به ولزمه وألَبَّ على الأمر لَزِمَه فلم يفارقه وقولهم لَبَّيك ولَبَّيه مِنه أي لُزوماً لطاعَتك.

التلبية إذن هي الإقامة بالمكان!..

أنت مسافر إلى حيث يجب أن يكون مقر إقامتك، لا الجغرافية بالمعنى الضيق، بل بالمعنى الأعمق، أنت تقول في جوابك إن طاعته عز وجل فيما يأمرك به، هو سكنك الحقيقي، هو استقرارك حقا.

لبيك اللهم لبيك، مقيم أنا في مقر إقامتي الحقيقي، حيث الدرب الموصل إليك..

الدرب الذي سار عليه موسى.. ويونس.. ومحمد عليه الصلاة والسلام..

* * *

مفردات التلبية تمثل لب التوحيد، مثل شهادة (لا إله إلا الله)..

الفرق هو أن لا إله إلا الله، تتضمن خطاباً موجهاً للجميع.. لك، لمن يؤمن بما تؤمن به.. ولمن يكفر به لأنه يؤمن بآلهة أخرى.. أو لا يؤمن بشيء، أو يظن أنه لا يؤمن بشيء وهو يؤمن بآلهة لم تعد تقول عن نفسها أنها آلهة..

لكن في التلبية أنت تخاطبه هو، عز وجل. لفظ (اللهم) لا يأتي إلا عندما يكون السياق سياق دعاء موجه إليه عز وجل، ولفظ الجلالة بصيغته هذه يتضمن ياء النداء، وأنت، بهذه التلبية، تخاطبه هو لتقول له ما هو محفور في فطرتك **«لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة، لك والملك، لا شريك لك.. لبيك اللهم لبيك»**

لا شريك لك.. لا تشير التلبية إلى (إله آخر) لتنفي وجوده.. بل إلى نفي (الشريك).. الشريك الوهمي الذي ينصبه البعض - دون أن يعلنوا ذلك صراحة - ليكون شريكا لك، سبحانك!..

وكيف يكون لك شريك، والملك لك، والنعمة لك؟

ليس هناك سواك. وأنت وحدك بلا شريك.

العبودية لك. والتعبد لك. طريقة رؤية العالم منك.

والحكم على الأشياء منك. قانون حياتي منك.. نعم قد أزل عن ذلك أحيانا، لكني (أود) دوما أن أعود إلى مقر إقامتي الأكثر أمانا..

كل شريك لك، ولو بأقل نسبة رقمية ممكنة، سيجعلني أسكن على حافة الهاوية.. ولو في قصر منيف!

فكيف لا يكون الحمد، لك وحدك، وأنت وحدك تستحقه ؟

لبيك اللهم لبيك!

* * *

وفي الحديث الصحيح عن جابر، أن الرسول عليه الصلاة والسلام، **إذا استوت به ناقته على البيداء أهل بالتوحيد (لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك)».**

أهّل بالتوحيد.. هكذا وصف جابر تلبيته عليه الصلاة والسلام..

وهلل، تعني رفع الصوت بالتلبية..

ولكنها تعني أيضا ما أراه مرتبطا جدا بالتلبية..

هَلَّ السحابُ بالمطرِ وهَلَّ المطر هَلاًّ وانْهَلَّ بالمطر انهلالاً واسْتَهَلَّ وهو شدَّة انصبابه.. ويقال هو صوت وقعه.

نعم.. ترتبط التلبية بذلك فعلا.. ترفع صوتك بكلمات التلبية.. فينهمر المطر على روحك بعد طول انحباس.. وتعانق أعماق روحك ذلك المطر فترتوي وتتأهب

لنمو بذور ألقاها إبراهيم في واد غير ذي زرع.. ولكنها ستبرعم وتزدهر في وديانك أنت..

مع كل لفظ من ألفاظ التلبية، ينهمر المطر على أراضيك المقفرة التي غدت صحراء من طول الجفاف..

وليس هذا كل شيء!

فمن معاني لفظ (هلّ) **استهلّ الصبيُّ بالبُكاء رفع صوتَه وصاح عند الوِلادة!**

يهل الطفل الوليد، **يصرخ معلنا تمسكه بحبل الحياة.. لقد ترك الحبل السري، لكنه يتمسك بحبل الله.. حبل الله الممدود بنعمة الحياة..**

صرخة الطفل، فاتحة حياته، اسمها في العربية (أهل)..

وكذلك التلبية، كما وصفها جابر، عندما تكلم عن حجه عليه الصلاة والسلام..

إنها إعلان الحياة أيضا..

صرخة الطفل الأولى تكون صرخة فطرية لا إرادية.. صرخة تشبث بالحياة..

لكن تلبيتك هنا هي صرخة تشبث واعية بالحياة.. الحياة التي تريد أن تعيد تشكيلها كما يجب أن تكون..

التلبية، لبيك اللهم لبيك، هي صرختك التي تريد الحياة.. التي تعلن فيها أنك تريد الحياة.. أنك سئمت من ذلك النوع المتدني منها الذي أوهموك أنها كل الحياة..

قلبك الحقيقي، لبك، يعود إلى نبضه، يدق مجددا - كما بمعجزة -...

وأنت ترفع صوتك، تهل بالتوحيد..

لبيك اللهم لبيك..

* * *

مفتاح الطواف

الدوران صفة ثابتة من صفات هذا الكون. الكون كله، من المجرات، إلى الذرات، مرورا بكل ما هو (جزيئة) في هذا الكون، يدور..

والدوران، بالتعريف، **يجب أن يكون حول مركز، حول نقطة ما هي المركز، أو حول محور يقوم مقام المركز..**

ولكن، عندما تكون في داخل هذا الدوران، عندما تكون جزءا منه، فإنك تجهل أنك تدور..

عندما يكون (الدوران) هو الحركة الاعتيادية التي تلف الكون كله، فإن المراقب من داخل هذا الكون، قد يتوهم أن الكون كله ساكن، جامد، وهو في الحقيقة دائم الدوران..

الطواف، يخرجك من الصندوق.. يجعلك ترى حقيقة ثابتة من حقائق هذا الوجود.. **بل يجعلك (تتمثل) هذه الحقيقة وتكونها..** لكن هذا الدوران، هذه المرة، لن يكون مجرد دورانا فيزيائيا.. بل سيكون أعمق بكثير..

* * *

المجـرات والـذرات لا يمكـن لهـا إلا أن تـدور، ولا يمكن لهـا أن تختـار مدارهـا، أو تعكسـه، أو تختـار مركـزا مختلفـا لدورانهـا..

وأنـت أيضـا، تـدور.. بطريقـة مـا، ليس ضمنـا، ليس علـى النحـو الفيزيانـي، بـل بمعنـى أعمـق وأكثـر شـمولا..

كل شيء يسير حسب قوانين لا يمكن أن تتغير..

أنـت وحـدك مختلـف.. أنـت وحـدك تختـار مـدارك والمركـز الـذي تـدور حولـه.. أنـت وحـدك تختـار دورانك..

أنـت وحـدك فـي هـذه الخليقـة، تملـك الخيـار، وكل مـا عـداك.. مسـيرا!

هنـاك حتمـا مـن سـيعترض.. **هنـاك بشـر لا يـدورون حـول مركـز مـا..**

فـي الحقيقـة هـذا نـادر جـدا.. كل منـا يختـار مـدارا أو فلكا ليدور فيـه، قد لا يكـون هـذا خيـارا واعيـا دومـا، لكـن الأمـر فـي النهايـة واضـح: ثمـة فلك مـا، يـدور حولـه هـذا الإنسـان..

قد يكـون الـدوران حـول نمـط حيـاة سـائد فـي مجتمـع مـا، لا يـدرك مـن يـدور حولـه أنـه يـدور حـول شـيء أصـلا.. **فقـط يخـوض مـع الخائضيـن..** ولكـن خـوض الخائضيـن هـذا يكـون عبـر الـدوران حـول مركـز مـا..

نمـط الحيـاة المتدنـي، أو مـا يعـرف بالانغمـاس فـي الحيـاة الدنيـا، هـو مركـز يـدور حولـه كثيـرون دون أن يعـوا ذلـك، نمـط الحيـاة الغربيـة نمـط سـائد أيضـا، يـدور حولـه منتمـون افتراضيـون لحضـارات أخرى..

يمكـن أن يكـون الفلـك أي خيـار أيديولوجـي عقائـدي تختـاره .. وقـد يكـون خيـارا يؤكـد أنـه ليس أيديولوجيـة بـل وينتقـد الأيديولوجيـات، فقـط ليمـرر أن (أيديولوجيتـه) هـي الخيـار الطبيعـي الأقـرب لطبيعـة البشـر وحاجاتهـم..

لا يمكـن لكوكـب مـا أن يغيـر مـداره، أمـا البشـر فهـم يفعلـون، قـد يولـدون فـي مـدار معيـن ثـم يكتشـفون خطـأه.. أو قـد يتوهمـون خطـأه.. قـد يعيشـون فـي مرحلـة تكـون فيها مـدارات أخـرى قـد حققـت تطـاولا براقـا، أو انتصـارات فـي جوانـب معينـة، لهـذا فهـم ينسـلون ليلحقـوا المـدارات الأخـرى، كمـا تفعـل الهزيمـة بنفسـية البعـض..

لا زلنـا نتحـدث عـن الـدوران حـول المركـز! عـن الطـواف!

* * *

طوافـك حـول الكعبـة، **هـو تأكيـد علـى التحامـك بمـدارك.. مـدارك الـذي تلتـزم فيـه طيلـة حياتـك.. أي المنهـج الـذي تؤمـن بـه وتؤمـن بصلاحيتـه لخاصـك وعامـك..**

رحلـة حياتـك كلهـا، كمـا يجـب أن تكـون، هـي سير فـي ذات المـدار، حـول الكعبـة..

أنـت تسـير فـي حياتـك علـى درب أنـت تقـرر مـداره وخطوطـه العامـة.. هـل سيكون منطبقـا علـى المـدار الـذي يريـده لـك الله؟.. نعـم قـد تـزل أحيانـا.. قـد تقـف.. قـد تتلكـأ.. **لكـن مـدارك، إن كنـت تسـير علـى مـا أراده الله، ثابـت.. دربـك، وإن تعثـرت عليـه، واضـح..**

كذلـك الطـواف، إنـه رحلـة حياتـك حـول ثوابتـك.. كل حياتـك هـي صـلاة بطريقـة مـا، كذلـك الطـواف، هـو

الصلاة سيرا على الأقدام، مثل رحلة حياتك..

الطواف صلاة يجوز فيها الكلام بنص حديثه عليه الصلاة والسلام: **الطواف بالبيت صلاة ولكن الله أحل فيه المنطق فمن نطق فلا ينطق إلا بخير.**

لا بد أن يكون لهذا معنى وحكمة.. كما في كل شيء في هذا الدين وشعائره..

يمكن أن يكون هذا تذكيرا لنا بأن الطواف **هو رمز شعائري لحياتنا كلها..** ندور وندور حول ثوابت هذا الدين وشريعته، هذا الدوران لا يتناقض مع أن نمارس حياتنا، بل ينظمها فقط، يجعلها مثمرة إذ يجعلها تدور حول ما يجب الدوران حوله..

الطواف فرصة لتذكيرك بأنك ما دمت لا تزال حيا، يمكن لك أن تغير مسارك، أن تصحح مدارك..

أن تلتحم بالمدار الذي خلقت كي تكون فيه..

* * *

الطواف بطريقة ما، يشبه القبلة..

صلاتك باتجاه هذه القبلة، خمس مرات كل يوم، تربطك بما يمثله هذا البيت.. بكونه البناء المستمر، دائم البناء والتجدد، القائم على الشريعة الثابتة..

صلاتك باتجاه البيت، خمس مرات كل يوم، تذكير لك بهذه الثوابت.. تذكير (يومي) لك بالبوصلة التي يجب أن تحدد مسيرتك على أساسها..

الطواف هو تأكيد على هذا.. في الطواف أنت في

داخـل المـدار، البيـت أمامـك، وأنـت مثـل كوكـب تطـوف حولـه.. تسـتمد مـن طوافـك حولـه مـا يجعلـك فـي المـدار الصحيـح لاحقـا، فـي الطـواف الآخـر.. طـواف حياتـك..

* * *

مفتاح الدوران عكس عقارب الساعة

كل مـا فـي الإسـلام يميـن، لكنـك فـي الطـواف، تأسـيا بـه عليـه الصـلاة والسـلام، تجعـل الكعبـة علـى يسـارك، وتسـير يمينـا، أو مـا يعـرف اليـوم بعكـس عقـارب السـاعة..

كل مـا فـي الإسـلام يميـن.. ثـم تقـف أمـام الكعبـة لتضعهـا علـى شـمالك.. وتطـوف وهـي علـى شـمالك.. وكل العالـم يمينـك!.. **كمـا لـو أنـك بهـذه الحالـة تضـع الكعبـة علـى شـمالك، لأنـك تريـد أن تمسـك العالـم بأسـره بيمينـك.. الكعبـة ستمسـك بـك.. لكـن يـدك، التـي عليـك أن تبنـي العالـم بهـا، التـي سـترفع البنـاء بهـا.. يـدك هـذه، سـتكون اليميـن.. وبهـا سـتبدأ البنـاء حقـا..**

* * *

هـذا الاتجـاه عكـس عقـارب السـاعة، هـو **السـير فـي ذات الاتجـاه الـذي تسـير بـه الأرض فـي دورانهـا..** أي حيـث تقـع مكـة، تـدور عكـس اتجـاه عقـارب السـاعة..

كل الكواكـب فـي المجموعـة الشمسـية (عـدا كوكـب الزهـرة)، تـدور حـول الشـمس عكـس عقـارب السـاعة. كذلـك الشـمس والقمـر يـدوران حـول نفسـهما عكـس عقـارب السـاعة.

(عكـس عقـارب السـاعة) هـو اتجـاه هـذا الجـزء مـن

الكون وأنت في الطواف، تتمثل هذا الاتجاه، **أنت تسير مع السنن، باتجاه الزمن، كل ما تبنيه وترفعه وتعليه وترسخه، سيكون باستثمار السنن، لن تستطيع أن تفعل أي شيء مهم بمعاندة السنن أو السير بعكس اتجاهها..**

الطواف مثل قصة حياتك بنسختها التي يجب أن تكون. إنه أن تسير مع السنن، باتجاه ما يجب أن يكون..

* * *

عندما تكون الكعبة على يسارك والعالم على يمينك، فإن **قلبك، الذي في يسارك، يكون أقرب للكعبة!**

القلب الذي على اليسار، هو الذي يجعل العدائين في كل العالم، يركضون في كل سباقاتهم وتدريباتهم، عكس عقارب الساعة.. بعبارة أخرى، **بنفس اتجاه الطواف!**

هذه حقيقة فسلجية علمية، وجود القلب على اليسار من الجسم البشري، و(الركض) عكس عقارب الساعة، يساعد القلب على أداء عمله أثناء الركض، بينما سيكون الأمر مختلفا لو كان اتجاه الركض مع عقارب الساعة..

وهكذا، يكسب العداؤون، قوة إضافية، عندما يكون عدوهم، عكس عقارب الساعة..

باتجاه حركة الأرض والسنن.. والطواف!

لست في سباق للركض.. أنت في طواف..

لكن حياتك هي، بطريقة ما، مثل سباق ماراثون.. يبدأ ساعة ولادتك، وينتهي ساعة موتك، تجمع فيه ما يمكن أن يحسب لك من مساهمة في البناء قيد الإنجاز،

وما يمكن أن يحسب عليك من العبث أو اللاشيء أو المساهمة في بناء خاطئ..

فانظر أين يكون قلبك، وماذا يكون على يسارك، وماذا يكون على يمينك، وأين يكون اتجاهك..

* * *

مفتاح الرمل

لأن الحج وسيلة لتقريبك من دورك في الحياة، وجعلك أكثر إتقانا لها.. فإن هذه المشاعر تتضمن أيضا إظهارك لقوتك.. أنت الذي عينك الله خليفة في الأرض..

ولأن الطواف هو رحلة حياتك، فستكون القوة، وإظهارها، جزء من هذا الطواف!

أن تتعبد لله، بإظهار القوة!

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رضي الله عنهما - قَالَ قَدِمَ رَسُولُ الله - صلى الله عليه وسلم - وَأَصْحَابُهُ فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ إِنَّهُ يَقْدَمُ عَلَيْكُمْ وَفْدٌ وَهَنَهُمْ حُمَّى يَثْرِبَ. وَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ - صلى الله عليه وسلم - أَنْ يَرْمُلُوا الأَشْوَاطَ الثَّلاَثَةَ، وَأَنْ يَمْشُوا مَا بَيْنَ الرُّكْنَيْنِ.

مشركو قريش توهموا أن صلح الحديبية سيخنق المسلمين، وكانوا يتخيلون أن المسلمين قد تعودوا جو المدينة على نحو سيجعلهم يتعبون في الطريق، أو أن حمى معينة في المدينة قد أصابتهم بالهزال..

والرسول عليه الصلاة والسلام، يريد أن يري قريش، أن أوهامهم بعيدة عن الواقع.. لذا فقد أمرهم بأن يرملوا..

والرَّمَل هو الهرولة..

بلحظة واحدة، **تحولت الشعيرة إلى ما يشبه الاستعراض العسكري** الذي يرهب قريش ويزيح عنها أوهامها..

والتدريب العسكري، في أرض العدو، يعكس ثقة بالنفس وقوة أكثر بكثير مما تفعل المباغتة بالهجوم على العدو..

وهكذا كان الرمل في الأشواط الثلاثة الأولى، شعيرة تظهر قوتك أمام العدو..

* * *

وعن سهل بن حنيف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما اعتمر وكان في الطريق قال:

لو أنا نظرنا إلى بعير سمين فنحرناه فأكلناه حتى يروا قوتنا، فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله ادع بأزواد القوم ثم ادع فيها فإن الله سيبارك فيها ففعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا قدمتم فارملوا الثلاثة الأشواط حتى تروا قوتكم».

المسلمون نحروا بعيرا سمينا وأكلوه قبل أن يدخلوا مكة، استعدادا وتقويا للموقف، اي أنهم (اكتسبوا القوة) ثم أظهروها في شعيرة الطواف.. ويذكرنا هذا بآية «وتزودوا فإن خير الزاد التقوى» حيث صح **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ كَانَ أَهْلُ الْيَمَنِ يَحُجُّونَ وَلاَ يَتَزَوَّدُونَ وَيَقُولُونَ نَحْنُ الْمُتَوَكِّلُونَ، فَإِذَا قَدِمُوا مَكَّةَ سَأَلُوا النَّاسَ، فَأَنْزَلَ الله تَعَالَى «وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى».**

ترتبط التقوى هنا بالتزود بأسباب القوة.. بالضبط على نحو معاكس لما أدركنا من مفهوم للتقوى (نسخة عصر الانحطاط)..

للقوة شعيرتها، ولكن الأخذ بأسبابها، هو من أساسات هذه الشعيرة..

كالوضوء، بالنسبة للصلاة!

* * *

الاضطباع.. وهو طريقة وضع ملابس الإحرام أثناء الطواف.. والاضطباعُ الذي يُؤْمَر به الطائف بالبيت **أن تُدْخِل الرِّداءَ من تحت إِبْطِك الأيمَنِ وتُغَطِّيَ به الأيسر كالرجل يريد أن يُعالِجَ أمْراً فيتهيأ!**

كمن يشمر مستعدا للدخول في عمل ما..

والكتف الأيمن، مع العضد، يظهران.. فتظهر معهما قوتك.. عضلاتك.. يظهر تحضيرك واستعدادك لهذا الإظهار.. وأنت قد شمرت، استعدادا للعمل في هذا العالم..

كل ذلك من خلال الشعائر!

* * *

لكن إظهار القوة أمام كفار قريش، كان له مغزاه وتأثيره وقتها .. فهل انتهى ذلك بانتهاء هذا؟

قطعا لا. الرسول عليه الصلاة والسلام رمل واضطبع في حجة الوداع.. والمسلمون في أقوى حالاتهم..

كما مع سبب النزول الآيات، تتشكل الشعيرة بشكلها

لسبب ما، لكن خصوص السبب لا يلغي عموم معنى الشعيرة..

نعم كفار قريش لم يعد لهم وجود.. لكن كفار الملأ العالمي، ملأ كل زمان ومكان، لا يزالون يعقدون الندوات والمؤتمرات، لا يزالون يتحينون ضعفنا..لا يزالون يكيدون..

الفرق بين المشهدين، هو نحن... ضعفنا لم يعد شائعة أو خيال.. لم يعد مجرد تعب عابر ناتج عن السفر.. **لقد صار حقيقة.. حقيقة ناتجة عن تخلينا عن اتخاذ الأسباب، عن التزود بالتقوى التي هي الأخذ بالأسباب ضمن معان متعددة..**

ونحن، ابتعدنا عن الشعائر.. لا نحاول أن نكتسب القوة لكي تكون الشعائر معبرة عنها حقا.. الشعائر مجرد حركات نؤديها كما يفعل الإنسان الآلي.. لا نحاول أن نستمد منها ما هي ممتلئة به..

لو أن خطأ أصاب أداء الشعائر، لركضنا نسأل عن الفتوى، (علينا دم أم لا ؟)..

لكن أن تمضي شعائر القوة دون أن ننتبه إلى ضعفنا.. دون أن تستفزنا لنبحث عن أسباب القوة.. لنستحق تأدية الشعائر..

مفتاح الرقم سبعة

نطوف حول الكعبة سبعة أشواط..

ونسعى بين الصفا والمروة، سبعة أشواط كذلك..

وعند الرمي، لاحقا، سيكون هناك سبع حصيات..

ثمة ارتباط واضح، وإن كان مجهول الأسباب، بين الرقم سبعة.. وبين الكثير من المفاهيم في الإسلام.. ليس في الإسلام فقط، بل في الكثير من الأديان السابقة عليه..

لا نتحدث هنا عن أسرار للرقم سبعة، بل عن معناه فقط، إذ لا أؤمن شخصيا بوجود أسرار في البيان القرآني، أؤمن فقط أن قدرتنا على فهم هذا البيان محدودة بزمانها ومكانها، لكن لا أسرار يقصد منها أن تكون (أسرارا خفية) وإلا تحول القرآن إلى طلاسم، وحاشاه، هو الذي أنزل لقوم يعقلون، أن يكون كذلك..

* * *

الرقم سبعة، عند العرب يستخدم للتضعيف والتكثير.. أي أنه يستخدم للدلالة على الكثرة.. والسياق القرآني فرق بين الاستخدامين، الاستخدام (العددي) الذي يعني العدد بعينه.. والاستخدام التكثيري الذي يعني الكثرة والمضاعفة دون أن يعني أنه لا يوجد (عدديا) أيضا..

في لسان العرب الذي نزل القرآن فيه، كانت العرب تقول لمن أحسن إليها: **سَبَّع الله لك! أيَ جَزاك بواحد سَبْعة**

عندما يقولون سبع الله لفلان، كانوا يقصدون أقصى ما يمكن أن يحدث، الحد الأقصى من التوقع ومن النتيجة.. وليس بالضبط (الرقم سبعة) الذي يلي الرقم ستة..

الرقم سبعة في القرآن، وتحديدا عندما لا يكون

مصحوبا بعدد آخر، يشير إلى معنى الكمال وبلوغ الغاية في الخلق تحديدا.

* * *

خلق السماوات، والأرض، ارتبط بالرقم سبعة.. وكذلك خلق الإنسان، عبر أطوار سبعة..

والرقم سبعة يعني عند العرب، التضعيف، والتكثير، وبلوغ الغاية..

إنه الخلق الكامل إذن..

خلق السماوات والأرض.. وخلق الخليفة في الخلق!

والرقم سبعة، عندما يربط بين الإثنين، فهو يربط بين المسؤولية الإنسانية، التي يمتلكها هذا المخلوق الذي خلق بأطوار سبعة.. وبين هذا الكون الذي وجد ليكون خليفة فيه..

الربط هنا، هو بلوغ الغاية في الخلق..

الرقم سبعة، في أطوار خلقك وتشكلك، يذكرك، أنك كمخلوق، مرصود لكي تساهم في دورك في هذا الكون.. أن تكون خليفة الخالق في خلقه.. الطور السابع تحديدا يطلقك في مدى لا حدود فيه..

«ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ». (المؤمنون:١٤)

ليست هذه صدفة قط.. فالسبعة ليس الرقم الأكثر تفضيلا بالمطلق.. الصلوات مثلا خمسة، ولا يوجد أي

صلاة من الصلوات الخمس ركعاتها سبعة..

لكن ارتباط السبعة بالخلق.. سيربطك حتما، عندما تستعرض أطوارك السبعة، بما خلقت من أجله..

* * *

الأشواط السبعة في الطواف وفي السعي.. ترتبط بكل ذلك..

الأشواط السبعة هي رمز لأن تكون حياتك، بكل أطوارها، ثابتة حول مركز واحد.. حول شريعة واحدة.. حول منهج واحد..

* * *

مفتاح الحجر الأسود

يبدأ كل شوط وينتهي، بالحجر الأسود..

لا بد لكل انطلاق من نقطة، ولا بد لكل شوط أن يحدد بدايته ونهايته..

الطواف لو ترك دون نقطة بداية أو نهاية تضبطه، سيجعل الطائفين يفقدون قدرتهم على العد، وعلى معرفة موقعهم من رحلة الطواف.. لكن نقطة بداية كل شوط ونهايته تنظم ذلك.

كل شيء يجب أن يقنن، أن يكون له ضابط واضح.. حتى الطواف..

ولأنه لا بد من نقطة البداية تلك، فلا يمكن أن يكون هناك أفضل من (الحجر الأسود)..

* * *

الحجر الأسود هو كل ما بقي من الجنة على الأرض.. فقد صح أن عليه الصلاة والسلام قد قال **«نزل الحجر الأسود من الجنة أشد بياضا من الثلج فسودته خطايا بني آدم»**

الحجر من الجنة، وهي الجنة على الأغلب التي كان فيها آدم، ووجوده على الأرض يذكرنا حتما بتلك الجنة التي مر فيها آدم بتجربته المعروفة..

لكن ماذا كان جوهر تلك الجنة التي سكنها آدم وزوجه؟

«إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى» (طه: ١١٨ - ١١٩)

«وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ» (البقرة: ٣٥)

إنها الجنة التي تسد فيها الحاجات الأساسية لكل إنسان، المسكن، الملبس، المشرب والمأكل.. إنها جنة العدالة الاجتماعية والتوازن الاجتماعي التي يحتاجها كل إنسان لينشأ في بيئة صحية يحقق فيها ذاته وإمكاناته..

إنها ليست جنة اللامقطوع واللاممنوع.. بل هي جنة «ولا تقربا هذه الشجرة»، أي أنها جنة الالتزام بالبعد عما حرم الله، جنة يوجد فيها (الحرام) الذي هو جزء من أي مجتمع متماسك متوازن، سواء عبر عن هذا المنع بالحرام أو بخرق القانون..

الحجر الأسود.. جاء من هذه الجنة.. جنة العدالة الاجتماعية، جنة لا يجوع ولا يعرى ولا يعطش فيها

أحد.. جنة الحياة الكريمة للجميع.. لم تكن جنة الترف والبطر الذي يتجاور مع الفقر المدقع.. لم تكن جنة الملأ الذي يستأثر بـ٩٠٪ من كل شيء ويترك الفتات للأغلبية..

وجوده في البيت الحرام، بداية كل شوط منه وانتهاؤه فيه، كونه جزءا من مناسك الطواف، كل هذا، يجعلنا نرتبط بما تعنيه تلك الجنة.. بقيم العدالة والتوان.

هذا هو الحجر الذي تبدأ منه طوافك، نقطة انطلاقك، المبادئ التي تنطلق منها لتحققها على أرض الواقع.. كل شوط من أشواط الطواف يبدأ من الحجر الأسود، ويعود إليه، كما لو لتذكرك بأن عليك تذكر هذه القيم في كل شوط من أشواط حياتك.. كما لو أن عليك مراجعة ما حققته منها على أرض الواقع في كل شوط من أشواط حياتك..

وهو (أسود) كي نتذكر ما يجب تبييضه في هذا العالم..

* * *

استلام الحجر الأسود، يعني لمسه، أو محاذاته على الأقل..

لا أستطيع إلا أن أفهم ذلك على أنه (استلامه) ليكون لبنة، حجرا أساسا، لكل بناء ستبنيه، لإضافتك الشخصية في البناء الشامل، لبنائك لشخصك، لأسرتك، لمنجزك الشخصي..

ولهذا..

«ليأتين هذا الحجر يوم القيامة له عينان يبصر بهما

ولسـان ينطـق بـه يشـهد علـى مـن اسـتلمه بحـق».

سـيأتي ليشـهد علينــا، ليقـول إن كنــا قـد اسـتلمناه بحـق، إن كنــا وضعنــاه كحجـر أســاس فـي كل مــا بنينــاه ونبنيــه، أم أنهــا كانـت مجـرد (حركــة) قمنــا بأدائهــا دون تضمينهــا أي معنـــى..

*　*　*

تقول عند استلامك الحجر «بسم الله، الله أكبر»..

إنهـا حيـاة جديـدة تلـك التـي يمثلهـا الطـواف.. حيـاة تبدأهـا باسم الله.. **أي بالتفويـض الـذي منحـك إيـاه عز وجـل فـي هـذه الحيــاة.. بتفويــض الاســتخلاف الــذي يتمثـل حقـا حصريـا لـك، مشـروطا بالسـير علـى مـا أراده لـك فيهـا..**

والله أكبر..

تذكيـر بكونــه خــارج كل المقاييـس.. وبكـون شـريعته، والمنهـج المنبثـق منهـا، هـو الأفضـل حتمـا، وهـو الأنسـب حتمـا، فـي رحلـة الطـواف – رحلـة الحيـاة تلـك..

الله أكبر، حقا، منهجا، شريعة، خيارا..

لا مجرد كلمة تقال على اللسان..

*　*　*

قبـل الوصـول إلـى نهايـة الشـوط، سـيكون هنـاك (الركـن اليمانـي).. بالضبـط قبـل الركـن الـذي فيـه الحجـر الأسـود.

الركـن اليمانــي، الــذي نسـتلمه جميعـا سـيرا علـى سـنته عليـه الصـلاة والسـلام، يمثـل تذكيـرا لنـا **كيـف أن البنــاء يبدأ بحجـر (هـو الـذي ابتـدأ بـه الطـواف) ومـن ثـم يصيـر**

ركنا ركينا شامخا..

في السير بين الركن اليماني والحجر، أي في نهاية كل شوط يسن ذلك الدعاء الذي يختصر جوهر الطواف..

عن عبد الله بن السائب قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما بين الركنين **«ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار».**

يأتي هذا الدعاء ليقول لك بالمختصر ما يجب أن تكونه قصة حياتك..

إنه السعي إلى الحسنيين.. الدنيا والآخرة..

لا فصل هناك بينهما.. لا يمكنك حقيقة أن تحوز حسنة الآخرة إن لم تؤد في الدنيا (حسنا)..

حسنتا الدنيا والآخرة، هما جوهر وغاية الطواف..

الطواف ليس بمعنى الشعائر فحسب.. بل بمعنى ما سنفعله في حياتنا لاحقا..

* * *

مفتاح الصلاة في الحرم

ركعتان بعد الطواف، صلاهما الرسول عليه الصلاة والسلام خلف مقام إبراهيم

كل الحرم (قبلة).. نتجه من كل بقاع الأرض نحو الكعبة قبلة لنا..

لكن هنا، في قلب الحرم، سنختار (المقام الإبراهيمي).. ليكون (المصلى).. المكان الأفضل للصلاة، في أفضل بقعة للصلاة على وجه الأرض..

لن يتمكن الجميع من الصلاة فيه بالتأكيد.. لكن تحديده، ونزول قرآن فيه، وتحوله ليكون سنة عنه عليه الصلاة والسلام سيجعل من هذا المقام، بكل ما يحتويه من معان وقيم، ركنا أساسيا في فهمنا للحج كله..

* * *

مقام إبراهيم هو المكان الذي وقف عليه إبراهيم عليه الصلاة والسلام أثناء بناء البيت..

هذا المقام – المصلى، لم يكن الموضع الذي صلى فيه إبراهيم بالضرورة.. ربما يكون قد فعل ذلك لاحقا.. لكن المقام صار مقاما لأنه المكان الذي عمل فيه.. لأنه مد يديه ليستلم الحجر وهو واقف عليه.. وهو يرفع القواعد.. وهو يشرف على البناء..

الكعبة، قبلتنا في كل مكان، تمثل المنهج، الشريعة الثابتة، التي ندور حولها..

لكن مقام إبراهيم، في حضن الكعبة، **يدلنا على ذلك العرق الذي تصبب ليرتفع ذلك البناء..**

وهناك، حيث تصبب العرق.. حيث ارتفع العمل.. تصلي..

* * *

الوصول إلى لحظة المقام الإبراهيمي، لحظة العمل وتصبب العرق، لم يكن ممكنا دون كل الخطوات السابقة..

وموقف إبراهيم، على المقام، ارتبط قبلها بذلك البحث عن الإله الحق، بالعقل الذي عبد الدرب لينزل الوحي على أرض معدة جيدا، بالسنن، بطمأنينة القلب..

«... فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ» (آل عمران: ٩٧)

هل الآية البينة هي أن تستلهم العمل من المقام؟ أن تدرك العلاقة بين الصلاة والعمل، بين الصلاة والبناء، بل وبين الارتفاع في البناء؟

ربما..

* * *

ركعتان خلف المقام، قرأ فيهما عليه الصلاة والسلام (قل يا أيها الكافرون) و(قل هو الله أحد)...

ربما لن تتمكن من الصلاة خلف المقام..

لكن ستصلي الركعتين، وستقرأ «قل يا أيها الكافرون» و»قل هو الله أحد»..

لا شيء بالصدفة في هذا الدين.. ولا شيء بالصدفة في شعائره..

* * *

قل يا أيها الكافرون!

السورة مكية.. نزلت في وقت كانت الشوكة فيه للكفار..

وقرأها عليه الصلاة والسلام في الحج، في وقت تبدلت فيه الأوضاع، وصارت فيه الشوكة للمسلمين..

لم يقرأ عليه الصلاة والسلام (سورة النصر) مثلا، التي قد نتخيل أنها مناسبة أكثر لتلك الجموع التي تؤدي مناسك الحج..

لكن لا.. النصر عابر، يمد ويجزر.. النصر نتيجة لاحقا..

لكن الكفر حقيقة ملازمة لوجودنا كبشر على هذه الأرض.. سيكون هناك دوما (كافرين).. وعيك بهذه الحقيقة.. وتعاملك مع العالم على أساسها، هو الذي يمكن أن يوصلك إلى سورة (النصر).. ولوضعية النصر..

* * *

هذه المفاضلة الموجودة في السورة، هذا الوضوح في الحدود بين الكفر والإيمان، هذا الإصرار على أن «لا أعبد ما تعبدون» هو الذي يجب أن يكون موجودا على الدوام..

لماذا يتكرر نفي العبادة، مرة بصيغة «لا أعبد ما تعبدون» ومرة بصيغة «ولا أنا عابد ما عبدتم»؟

النفي جاء مرة بصيغة الفعل «لا أعبد ما تعبدون»، ومرة بصيغة الجملة الاسمية «ولا أنا عابد ما عبدتم»..

النفي بصيغة الفعل، يأتي لنفي (فعل العبادة) الذي قد يحدث دون وعي مسبق، دون سابق نية أو قصد أو تصميم..

يمكن لك أن (تنزلق) لعبادة وثن ما، دون أن تعرف أنه وثن، ودون أن تدرك أنك تعبده، ليست كل الأوثان

أصناما واضحة مثل هبل واللات، ولا كل العبادات لها شكل السجود والركوع الذي يؤدى في حالات العبادة الواعية..

لهذا يقول النفي قاطعا حاسما.. «لا أعبد ما تعبدون».. بأي شكل من أشكال العبادة، حتى لو كان شكلا لا يبدو أنه شكل (عبادة) للوهلة الأولى..

النفي الثاني، «ولا أنا عابد ما عبدتم» هو نفي ليس للفعل الذي تم نفيه للتو، بل نفي لمعنى مقتصر على أن تفعل العبادة على نحو عامد متعمد..

الفرق بين الأمرين مثل أن (يقع أحدهم في كفر) – قد يكون عابرا، وبين أن يكون هذا الشخص كافرا..

* * *

فلم إذن، النفي عن الكفار، جاء مكررا، ولكن بصيغة واحدة؟ «ولا أنتم عابدون ما أعبد»..

لأن عبادة الله، لا يمكن إلا أن تحدث إلا على نحو واع وعامد..

عبادتي واعية. لا أعبد ما تعبدون. ولا أنا عابد ما عبدتم.

بيني وبين الكفر حدود واضحة لا أسمح لأحد أن يميعها أو يغطيها..

هذه الحدود الفاصلة، تحميك من كفرهم، وتسمح لتجربتك بالنمو والازدهار والتحول لمركز جذب حتى بالنسبة لهم. أما عندما تكون الحدود مميعة، غير

واضحة، فإن تجربتك ستكون معرضة دوما للاختراق.. وسيؤدي هذا دوما إلى ردود أفعال باتجاه التمييع، أو إلى العكس منه..

* * *

لكم دينكم ولي دين، كانت الخط الفاصل بين الكفر والإيمان..

نحن، أنا وأنتم (أيها الكافرون) ننتمي إلى منظومتين مختلفتين تماما. لا لقاء بيننا. نحن ننتمي إلى كوكب آخر.. إلى سلالة مختلفة..

عوملت هذه الآية تحديدا عكس ما نزلت لأجله..

نزلت في سياق المفاصلة، وبعد أن حددت تصنيفهم وتوصيفهم الدقيق «قل يا أيها الكافرون»..

تعامل الآية اليوم، معزولة عن سياقها، من أجل عدم الحكم على الناس أو تصنيفهم أو توصيفهم..

بينما نزلت من أجل العكس بالضبط.. من أجل وضع حدود في التعامل معهم، بعد إشهار تصنيفهم..

دون خجل من ذلك..

نعم.. لكم دينكم ولي دين، ولكن بعد «قل يا أيها الكافرون»..

* * *

لن نبتعد كثيرا عن كل هذا في الركعة الثانية التي سنقرأ فيها «قل هو الله أحد»..

سورة الإخلاص، ثلث القرآن، في الركعة الثانية..

الركعة الأولى كانت عن المفاصلة بين الكفر والإيمان. موقفك العملي من إيمانك بمواجهة الكفر متعدد الأشكال..

لكن الركعة الثانية هي عن هذا الإيمان.. عن كنهه.. بأبسط الكلمات، وبأعمقها في ان واحد..

نزلت السورة في مرحلة مبكرة من الفترة المكية، لا يمكن تحديدها بالضبط لكنها في الفترة العلنية من الدعوة حتما، بسبب أن نزول السورة قد جاء ردا على سؤال المشركين للرسول عليه الصلاة والسلام..

عن أبي بن كعب أن المشركين قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم انسب لنا ربك فأنزل الله قل هو الله أحد الله الصمد.

يريد المشركون نسب الله عز وجل! تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا..

انسب لنا ربك.. كانت تحديا، المنطق الجاهلي كان يريد أن يعرف من (خلف هذا الرب) الذي يؤمن به محمد.. هل من عشيرة توازي كبرى عشائرهم؟ ..من خلف هذا الذي ينادي بالدعوة لعبادته محمد؟ ما هو تاريخه؟ كيف لنا أن نؤمن به دون أن نعرف نسبه؟! نحن لا نزوج أحدا من بناتنا أو أولادنا دون أن نعرف تاريخ العشيرة التي سنناسبها.. فكيف نؤمن برب لا نعرف عن نسبه شيئا!..

كم نستغرب اليوم من هذا.. وكم بدا ذلك يومها منطقيا..

كان يمكن أن يأتي الجواب، متحدثا عن الله ومعه حشد ملائكته الذين يسبحون له ويأتمرون بأمره.. كان يمكن أن يأتي الجواب منوها بكل الخلق الذين خلقهم الله، أن تقدم الصورة وقد دججت بحشد من المؤيدين له عز وجل، على نحو يبهر مشركي مكة الذين يفكرون على نحو قريب من هذا..

لكن لا..

الجواب: أنه وحده.. لا أحد معه!

* * *

قل هو الله أحد..

تذكرك الآية فورا بأن الأهمية لا تكون قط بالكثرة.. أو العزوة.. أو النسب..

تذكرك الآية فورا، وأنت محاصر بزحام الحج، **بأن لا أحد مهماً حقا في الزحام.. إلا هو.. هذا الأحد الذي ليس معه أحد..**

إنه الصمد، والصمد هو الذي لا يجوع ولا يعطش، مجرد نزع صفتي العطش والجوع عنه سبحانه، سينزعان عنه صفة الضعف البشري. نفي هذا الضعف، سينفي الدافع الأساسي لتكون المجتمعات. سننسف فكرة النسب من الأساس.

أنتم تحتاجون إلى النسب. لأنكم محكومون بضعفكم، أما هو عز وجل، خارج المعادلة..

وهو، الغني عن الحاجة إلى الاستمرار.. المستمر دوما وأبدا، من الأزل إلى المطلق.. قبل البدء، وبعد النهاية..

هو، لا يلد ولا يولد، لأنه خارج الحاجة إلى ذلك، خارج كل ضعفنا البشري المتمثل بالخوف من الزوال..

وبسبب من كل هذا، لم يكن، ولن يكون، له كفوا أحد.. فكل ما سواه، سيبقى محكوما بضعفه..

* * *

النسب الذي طالب مشركو مكة به هو تعبير عن القوة والرفاهية والمنعة والعزة..

ولا تزال النفس البشرية رهينة بنفس ضعفها الذي جعل مشركي مكة يطلبون «انسب لنا ربك».. كل ما تغير هو طريقة التعبير عن هذا الضعف..

واليوم، كل (عقيدة) تعتنق، ستمر من خلال هذه الغربال الجاهلي ذاته، أي عقيدة ستقاس بمقدار التطاول الذي حققته، حتى لو كان تطاولا مبنيا على حافة الهاوية. ستقاس بمقدار الدخل والترف الذي حققته، حتى لو صاحب ذلك تزايدا في الهوة بين الفقراء والأغنياء، وصاحب الترف أعلى معدلات انتحار، وإدمان في العالم..

النسب هو الأصل، وهؤلاء لم يعودوا يبحثون عن نسب الله بالمعنى المباشر، تعالى الله عن أن يكون له نسب علوا كبيرا، لكنهم صاروا، يبحثون عن أصل العقيدة التي تؤمن به.. يبحثون عن (صراع طبقي) مهد لظهور رسالات الأنبياء وشرائعهم..

إنهم يؤمنون، أن هذه الرسالات، كما غيرها من العقائد، قد (ولدت) في ظرف تاريخي معين، وبسبب ظرف تاريخي معين.. وأنها أيضا قد تسبب في ولادة

عقائد أخرى ناتجة عنها..

لكنه هو الله أحد.

الله الصمد، المنزه عن التأثر بأي متغير.. المتعالي عن المتغيرات.. الإيمان به هو الذي يحدث التغيرات في هذا العالم الذي يحتاج إلى التغيير فعلا.. الإيمان به هو المعادلة الصامدة الصعبة في وجه كل التغيرات، في وجه كل ما يظهر ويأفل من عقائد ومعتقدات..

وحدها عقيدة الإيمان به عز وجل، لا تولد من شيء، ولا تلد عقيدة أخرى..

ارتباطها الوحيد بالولادة، هو أننا نملك خيار الولادة الحقيقية عبرها.. فقط..

* * *

السورة الأولى، قل يا أيها الكافرون، كانت مثالا عن التوحيد العملي، عن التوحيد في لحظة المفاصلة والمواجهة مع كل أنواع الكفر..

أما السورة الثانية، قل هو الله أحد، فقد كانت مثالا عن الأساس النظري لهذا التوحيد..

لماذا (الإيمان العملي) قبل (الإيمان النظري)؟ وقد تعودنا العكس؟!

لأن هذا الإيمان العملي، المفاصلة الحادة، هو بمثابة (السور) الذي سيحمي الجوهر الأساسي للتوحيد..

لو تساهلت قليلا.. لوجدت أنهم دخلوا عقر دار التوحيد..

لـذا، فالمفاصلـة أولا.. السـور المنيـع أولا.. قـل يـا أيهـا الكافـرون.. لا أعبـد مـا تعبـدون..

ثم بعدها.. قل هو الله أحد..

* * *

قبـل أن تذهـب للسـعي، سـتذهب إلـى (زمـزم) لتشـرب منـه، كمـا فعـل عليـه الصـلاة والسـلام.

مـاء زمـزم لا يكتفـي بـري عروقـك وأضلاعـك.. بـل يتوغـل ليصـل إلـى أعمـاق روحـك.. يسـد عطشـا أعمـق وأعـرق فـي داخلـك.. عطـش ربمـا تأقلمـت معـه وتعايشـت مـع وجـوده عبـر سـنين نشـونك، حتـى تخيلـت أن هـذا العطـش هـو الوضـع الطبيعـي..

شربة من ماء زمزم..

وبعدها، السعي، لتساهم في قصة اكتشاف هذا الماء!

مفتاح السعي

كانـت أم إسـماعيل قـد قطعـت مـع إبراهيـم شـوطا مـن دربـه، وصـارت معالـم طريقـه جـزءا مـن تشـكلها هـي أيضـا.. فهمـت عـن السـنن، عـن الصـورة الكبيـرة، لا عـن الجـزء الصغيـر مـن الصـورة

«إلـى مـن تتركنـا يـا إبراهيـم؟» .. هكـذا قالـت المـرأة التـي سـيدخل فزعهـا علـى ابنهـا التاريـخ..

«إلى الله..» أجاب سيدنا إبراهيم بحسم.

قالت: رضيت بالله..

وحيدان في الصحراء هي ورضيعها.. وشنة من الماء.. كانت أم إسماعيل تعرف أنها ستنفد قريبا.. والصبي يبكي.. يكاد يموت جوعا وعطشا..

لماذا توارى إبراهيم عن هذا المشهد الذي سيدخل تاريخ الشعائر؟

من الممكن القول إن ذلك كان امتحانا لهاجر وإيمانها.. وهو امتحان يمكن أن يمر به أي مؤمن.. ووجود إبراهيم – النبي – الرجل، إلى جانب هاجر، قد يشوش على موقفها الحقيقي المنفرد لأنه سيقدم لها إسنادا يقويها.. كزوج.. وكنبي..

لذا ربما كان يجب أن تمر هاجر بهذا الموقف الهائل، في الصحراء الخالية، ورضيعها يكاد يموت، أن يضمن ذلك في شعائر الحج، فقط لكي نتمثل موقفها.. ونشعر بما يمكن أن تكون قد مرت به..

ربما..

* * *

في السعي، ثمة امرأة تركض من أجل وليدها..

مشاعرها هنا هي أقوى ما يمكن لإنسان، ذكرا كان أو أنثى، أن يشعر به.. أن يتمسك به..

لولا أن الأنثى، لديها هذه الأمومة الطاغية، ليس في بني البشر فقط بل في كل المخلوقات، لولا هذه

المشاعر التي تجعلها حريصة على سلامة (طفلها) أكثر من حرصها على نفسها، لما كان يمكن للنوع الذي تنتمي له، أن يستمر، كان سينقرض حتما..

ونحن هنا أمام مشهد مركز، للأمومة وهي تصارع من أجل الاستمرار بالحياة..

ليس السعي بين الصفا والمروة عن طفل صغير يكاد يموت جوعا..

بل هو عن هذه المشاعر القوية لأمه، لكي تحميه وتنقذه..

وعندما تسعى أنت، بين الصفا والمروة، على خطا هاجر، في درب الرواح والمجيء اللاهث اللهفان.. فإنك تتمثل هذه اللهفة، هذا الحرص، تتمثل الشغف، انفطار قلبها على رضيعها، تناسيها خوفها على نفسها، والخطر ذاته محدق بها، من أجل أن تحميه هو..

نريد الشغف ذاته.. اللهفة ذاتها.. القلق والأمل ذاتهما..

لكن ليس على الصبي ذاته.. ليس على أي صبي بالإطلاق!

لن تكون مؤمنا حقا، مؤمنا حقا بمعنى أكبر وأعمق من مجرد التصديق، إلا إذا أحببت دينك وحرصت عليه ودافعت عنه حرصك على ابنك الذي يكاد يحتضر ويحتاج إلى دواء أو علاج عاجل..

السعي هو عن هذا، السعي هو أن تعمل لدينك، لتكون ما أمرك به ربك، بنفس الشغف واللهفة اللذين ستملكهما نحو طفلك الذي يكاد يفطر قلبك بصراخه

ألمـا أو عطشـا أو جوعـا..

السـعي هـو أن تملـك شـغف هاجـر، وتوجهـه نحـو عملية البنـاء المسـتمرة، علـى القواعد والأسـس..

* * *

لعلك أيضا تسعى من أجل صبي، يكاد يحتضر..

هـذا الصبـي هـو أنـت.. عليـك أن تسـعى، سـبع مـرات، فـي رمـز لرحلـة حياتـك كلهـا، لأجـل أن تجـد مـا ينقـذه..

هذا الصبي هو كل ما كان يمكن أن تكونه..

في السعي تدرك ذلك.. لم يمت بعد..

لكن عليك أن تسرع كي تلحقه..

* * *

قـال عليـه الصـلاة والسـلام عندمـا بـدأ السـعي: **«اسـعوا فـإن الله كتـب عليكـم السـعي»**

السـعي مسـتمر.. لكـن المهـم أن يكـون سـعيا مثمـرا، ينقـذ ذاك الصبـي المشـرف علـى المـوت..

المهـم أن يأخـذ شـغف السـعي.. نحـو الاتجـاه الصحيـح، الـذي يتجـاوز مشـاكل الفـرد، مشـاكل الأنـا، نحـو الــ (نحـن).. نحـو جعـل هـذه الــ (نحـن) جديـرة بمـا خلقهـا الله مـن أجلـه..

* * *

مـن بيـن كل الشـعائر، فـإن شـعيرة الصفـا والمـروة، قـد حـددت بأنهـا مـن «شـعائر الله»...

«إِنَّ الصَّفَـا وَالْمَـرْوَةَ مِـنْ شَـعَائِرِ اللَّهِ فَمَـنْ حَـجَّ الْبَيْـتَ أَوِ

إِعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ» (البقرة: ١٥٨)

مجـرد ذكـر وتأكيـد ذلـك، يحسـم كل جـدل يمكـن أن يستثمر فـي «لا جنـاح عليـه أن يطـوف بهمـا».. إنهـا مـن شـعائر الله.. وبعـض الأركان الأخـرى لـم تذكـر أصـلا فـي القـرآن.. فكيـف بمـا ذكـر بهـذا الوضـوح..

والشعيرة هي العلامة..

والمعنـى هنـا شـديد الوضـوح .. أن تكـون الشـعيرة علامة علـى طريـق خلاصك..

الشعائر، علامة على دربك نحو ما أراده الله لك..

والصفا والمروة، هما علامتان حتما على ذلك..

* * *

الصفا هو الحجر الأملس الذي لا ينبت عليه شيء.

والمـروة هـو الحجـر الأبيـض الـذي تقـدح منـه النـار ويسـتعمل لصنـع أدوات الذبـح.

وهنـا نجـد الصفـا والمـروة يمثـلان مـا كان علامـة مـن علامـات التطـور فـي تاريـخ البشـرية.. علامـة هامـة علـى درب اسـتخدام وتسـخير مـا فـي الأرض لصالـح خدمـة الإنسـان..

كان اسـتخدام الحجـر ليكـون أداة قطـع، قفـزة مهمـة للبشـرية فـي درب تطورهـا.. بـه انتقلـت مـن عصـر الرعـي إلـى عصـر الزراعـة، تمكنـت مـن تدجيـن الحيوانـات، واسـتثمار منتجاتهـا..

كان اكتشاف النار، علامة فاصلة غيرت حياة البشر، إذ أنه فتح الباب أمام سلسلة أخرى من الاكتشافات والاستخدامات...

في السعي تنتقل من الصفا، الحجر الأملس، إلى الحجر الذي أمكن للبشرية أن تقفز قفزاتها العملاقة عبر استثماره..

ليس هذا عبثا..

بل هو تمثيل لرحلة حياتك كما يجب أن تكون، أن تبحث عن ما ينفع الرحلة ولو في الصخر، ولو في الحجر، ما قد يبدو بلا نفع في البداية، قد يفتح الباب نحو ما لا يمكن تخيله من منافع..

لكن ذلك ما كان يمكن أن يحدث، لولا الارتباط مع الصخر الأبيض، قادح النار والأداة القاطعة..

التحام الأمرين، هو ما سينتج ذلك..

إنه السعي بين الصفا والمروة..

السعي الذي سيجلب الأدوات والوسائل..

سنتذكر هنا ما قاله عليه الصلاة والسلام، «اسعوا فإن الله كتب عليكم السعي»..

وسترى معنى جديدا في السعي، وفيما كتبه الله علينا، وفيما أنجزته البشرية..

* * *

هذا سيقودنا إلى سؤال آخر..

هل كانت الوسائل والأدوات، التي أنتجها سعي البشر،

لخدمة الإنسان؟ أم أنها استخدمت أيضا لغير صالحه؟

لهذا، ولمنع انحراف الوسائل عن الغايات، الوسائل الناتجة عن السعي بين الصفا والمروة، نقف عند كل منهما، كل مرة، نرتقيهما، ونتوجه إلى الكعبة، إلى القبلة، إلى ميزان الثوابت والمعايير..

في كل وسيلة يصلها البشر.. تقول لنا شعائر السعي، أن نعرض استخدامها ونتائجه على معاييرنا وثوابتنا ومقاصدنا..

ولهذا أيضا جاءت صيغة الدعاء والذكر التي تقال عند ارتقاء الصفا والمروة لتكرس ما سبق.. كما لو كان الدعاء هنا إعلانا لثوابت العقيدة كلها..

نقرأ أولا قوله تعالى: **«إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ومن تطوع خيرا فإن الله شاكر عليم». ونقول: «نبدأ بما بدأ الله به».**

ثم يبدأ بالصفا ويرتقي عليه حتى يرى الكعبة. فيستقبل الكعبة فيوحد الله ويكبره فيقول: **الله أكبر الله أكبر الله أكبر (ثلاثا)..**

لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير لا إله إلا الله وحده لا شريك له أنجز وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده. يقول ذلك ثلاث مرات ويدعو..

الله أكبر، ثلاثا، من كل تلك الوسائل التي انحرفت عن الغايات. الله أكبر أيضا من الكسل عن السعي، من عدم الوصول إلى الوسائل، من عدم استكشاف هذه

الوسائل.. من الكسل عن ربطها بالغايات..

سنسعى في درب حياتنا بكل الأحوال، لكن المهم أن يكون سعينا على النحو الذي يرتضيه الله لنا..

ذلك التوحيد الذي ستعلنه وأنت على رأس الصفا، وربطه ب(**يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير**)، سيجعلك في موضع يقترب من (هاجر)، التي تركت ابنها وهو بين الموت والحياة، ثم وهبها الله عز وجل، ما جعل من سعيها ذاك شعائر يؤديها الملايين من المسلمين..

ثم صيغة توحيد أخرى يلحقها **«أنجز وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده»**..

هنا تجد النهاية القصوى لما مرت به هاجر: فتح مكة.. لقد ركضت من أجل صبيها هنا في هذه الأرض القاحلة.. وكان من نتائج قدرة الله أن تصبح هذه البقعة قبلة للعالمين

يضعك ما تقول هنا، وأنت على الصفا، بين حالتين، حالة أم إسماعيل وهي تهرول من أجل رشفة ماء لصغيرها..

وبين حالة الفتح، حالة النصر الكامل الكاسح..

المشهدان يتكاملان..

لا يمكن لك أن تصل إلى هذا النصر الكامل المبين.. دون أن تمر أولا بالسعي الذي مرت به أم إسماعيل.. بذلك الجهد والشغف والقلق الذي مرت به..

نعم.. أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده..

ولكن عبده الذي نصره، لم ينتظر النصر ليهبط عليه من السماء، بل أنجز ما عليه، سعى ليصل إلى استحقاق النصر، ثم جاء ما استحقه رغم تفوق (الأحزاب) في الكثير من النواحي عليه..

التأكيد على (**عبده**) هنا، على كونه كان منفردا، تذكير بأن كل الأمور الكبيرة، تبدأ من فرد واحد.. مرة إبراهيم.. مرة هاجر.. مرة محمد عليه الصلاة والسلام..

كلهم كانوا أفرادا، لكنهم، بالتدريج (امتلكوا) الأدوات والوسائل التي جعلت دعوتهم تخرج عن نطاق الأفراد والجماعات الصغيرة لتمثل الإنسانية جمعاء..

تمثل الإنسان كما أراده الله أن يكون..

* * *

مفتاح زمزم

«وجعلنا من الماء كل شيء حي» (الأنبياء: ٣٠)

الماء أصل كل حياة.. في العلوم، في الحياة اليومية.. وأيضا في الشعائر..

لكن زمزم، أكثر من ذلك..

إنه ليس مجرد ماء عادي..

الماء الذي هو ذرتا هيدروجين وذرة أوكسجين يمثل الحياة المادية.. حياة التنفس. الأكل. الهضم. الأيض.

لكن الحياة أعمق من هذا.. الحياة تشمل الجانب

المــادي، ولكنهــا أيضــا تشــمل المزيــد..

المزيــد الــذي لا يتعــارض مــع الجانــب المــادي، ولكنــه فــي الوقــت نفســه يجــد أبعــادا أعمــق تعطــي معنــى الحيــاة الحقيقيــة..

مــاء زمــزم لا يمثــل المــاء الــذي هــو أصــل كل شــيء حــي بالمعنــى المادي فحســب..

بــل هــو يمثــل أيضــا الحيــاة الأعمــق، الحيــاة بأبعادهــا الأخــرى، التــي تحقــق للإنســان هــدف وجــوده.. الحيــاة التــي يكــون فيهــا (خليفــة فــي الأرض) كمــا أراد لــه الله أن يكــون..

إسـماعيل لـم يرتـو بمـاء زمـزم وينـج ممـا نسـميه بالمـوت المحقــق فقــط ليعيــش حيــاة ببعــد واحــد، حيــاة بيولوجيــة ليــأكل ويشــرب ويتناســل فيهــا.. لا.. **حياتــه كانــت حيــاة حقيقيــة، بأبعادهــا القصــوى.**

وزمزم كان مفتاح الدخول لها..

مــاء زمــزم هــو رمــز لأصــل كل مــا هــو حــي حقــا.. حــي كمــا يريــده الله أن يكــون..

إنه رمز لما يدعونا الرسول إليه، ليحيينا..

كمــا ينــزل الله المــاء مــن الســحاب فيحيــي بــه الأرض الميتــة..

كذلــك ينــزل الشــريعة، الوحــي، ليحيــي بهــا الإنســان الميــت.. المجتمــع الميــت.. البلــد الميــت..

مــاء زمــزم لا يمثــل مــاء المطــر الــذي يحيــي الأرض بعــد موتهــا..

إنـه يمثل مـا يحيـا بـه الإنسـان فـي البعـد الأعمـق للحيـاة.. مـزم، رمـز للشـريعة التـي جـاء بهـا الوحي..

التي تصلح الإنسان، ومجتمعه.. بعبارة أخرى: تحييه!

* * *

عـنْ أَبِـي ذَرٍّ أَنَّ رَسُـولَ اللَّهِ - صلـى الله عليـه وسـلم - قَـالَ: فُـرِجَ عَنْ سَقْفِ بَيْتِـى وَأَنَـا بِمَكَّـةَ، فَنَـزَلَ جِبْرِيـلُ فَفَـرَجَ صَـدْرِى، ثُـمَّ غَسَلَـهُ بِمَـاءِ زَمْـزَمَ، ثُـمَّ جَـاءَ بِطَسْـتٍ مِنْ ذَهَـبٍ مُمْتَلِـئٍ حِكْمَـةً وَإِيمَانـاً، فَأَفْرَغَـهُ فِـى صَـدْرِي ثُـمَّ أَطْبَقَـهُ...

جبريل غسل قلبه عليه الصلاة والسلام به!

هـذا التفاعـل بيـن المـاء وقلبـه عليـه الصـلاة والسـلام، يزيـد مـن تعلقنـا بالمـاء، بـكل ما يحتويـه ويمثله مـن معان..

وأنـت تملـك الخيـار أن تتذكـر ذلـك، وأنـت تشـرب هـذا المــاء، بيـن الطـواف والسـعي، أو أثنــاء السـعي..

تعـرف أن قلبـك لـن يكـون كقلبـه يومـا مـا.. لكنـك تريـد مـن زمـزم، أن ينظـف قلبـك أيضـا..

أن تبـدأ بـه، كمـا بـدأ عليـه الصـلاة رحلـة إسـرائه. تبـدأ مسـراك مـن ليلـك الطويـل إلـى غـد أكثـر إشـراقا..

أكثر وضوحا.. أكثر إثمارا..

* * *

صـح عنـه عليـه الصـلاة والسـلام أنـه **«كان يحمـل مـاء زمـزم فـي الأداوى والقـرب وكان يصـب علـى المرضـى ويسـقيهم»**

كما صح عنه أنه قال **«ماء زمزم لما شرب له»**

هل يعني هذا وجود تركيبة مادية معينة في جزئيات ماء زمزم؟

لم يثبت هذا عمليا. وربما ليس هناك من داع أصلا .. زمزم ليس عن الحياة المادية بمعناها الضيق، بل الحياة بأبعادها الأعمق..

فلماذا إذن يُسقى للمرضى؟

لأنه ببساطة، **عندما تؤمن بما يمثله، فإن إرادة الحياة فيك تصبح أقوى**.. وعندما تصبح إرادة الحياة أقوى، فإن جهازك المناعي، سيتعامل مع أمراضك (الجسمية) على نحو أكثر فاعلية وقوة..

«زمزم لما شرب له».. يمكنك أن تسد عطشك وظمأك.. ويمكنك أن تستذكر التاريخ بأكمله..

ويمكنك أيضا أن تأخذ قلبك.. وترميه في زمزم..!!

* * *

مفتاح منى

عندما تذهب إلى منى، سيبدو لك أولا، أن لا شيء هناك لتفعله..

تلقي برحالك هناك، ثم تنتظر (أو سيبدو لك أنك تنتظر) أن يأتي يوم الذهاب إلى عرفة..

ليس من شعائر محددة.. هكذا ستعتقد.. وربما ستتساءل..

لكن الحقيقة هي أن الشعيرة في منى، هي **أن (تعيش) مع نفسك، ومع الملايين** من حولك الذين سيكون لزاما عليهم أن يكونوا في الوقت نفسه..

مهما كانت ظروف حجك ميسرة، وبمعزل عن عدد (النجوم) التي ترفعها حملتك، ومهما كنت في ظروف مرفهة بالنسبة للآخرين.. فإنك ستكون في منى، مع جمع من الناس، تشترك معهم في حيز ضيق في نوم ومأكل و(قضاء حاجة).. حتى لو كنت تعرف البعض منهم من قبل، حتى لو كنت اتفقت معهم مسبقا على الحج، فإنك في الحج، ستتعرف على جانب آخر منهم، كما سيتعرفون على جانب آخر فيك.. أن تتعرف على أحدهم وتعرفه لسنين في الحياة اليومية، أمر مختلف تماما عن (التعايش) معه في حيز ضيق تشاركه فيه في كل شيء في أدق التفاصيل الشخصية..

الأمر موجود في الحج كله، لكنه في منى (أكثر كثافة)..

التحدي الأكبر في منى هو أنت..

لا معنى للاءات الحج الثلاث إن لم تخالط الناس وإن لم يخالطوك.. هناك الامتحان الحقيقي والاختبار الحقيقي..

هنا قبولك للناس، هو الشعيرة..

ليست هذه نسخة (شعائرية) من مفهوم قبول الآخر الذي يروج اليوم، أنت هنا تتقبل أشخاصا لا شك في وجود مشترك عقائدي معهم.. لا شك في أنهم يؤمنون بثوابت تؤمن أنت بها أيضا.. لذا فالتعايش مع ما يبدر منهم، مع ما هو طبيعي أن يبدر منهم كبشر، هو تعايش

مـع نفسـك بطريقـة أو بأخـرى.. هـو تقبـل للنفـس البشـرية فـي عمـوم حالاتهـا..

فــي منــى، **تتخلـص مـن عاداتـك السـيئة فـي التأفـف الزائـد عـن الحـد مـن عـادات الآخريـن..**

فـي منـى **تهزم الأنـا التـي فـي داخلـك..** الأنـا التـي كانـت دومـا تمنعـك مـن الذوبـان فـي الــ (نحـن)...

الأنــا التــي كنـت تعتقـد أنهـا أعـز مـن أن تـذوب فـي جمـوع الآخريـن..

* * *

قيل عن منى أنها سميت بهذا الاسم لسببين..

السبب الأول لكثرة ما يمنى فيها من دماء الأضاحي..

ربمـا لـم يعـد الذبـح يـدار هنـا فـي منـى.. ربمـا لـم تعـد تـرى الدمـاء فـي منـى..

لكـن ثمـة ذبيحـة أخـرى لا يمكـن أن تذبـح إلا هنـا فـي منــى..

ذبيحـة أخـرى، يجـب أن يرهـق دمهـا هنـا فـي محـراب النفـس البشـرية التـي تـذوب فـي الجمـوع فـي منـى..

يمكنك أن تذبحها في أي مكان..

لكـن هنـا.. فرصـة ذبحهـا أقـوى.. ربما لأنك فـي الظـروف العاديـة لا تنتبـه إلـى هـذا الـذي يجـب أن تذبحـه.. لا تنتبـه لهـذا الوحـش الكاسـر المتنكـر بـزي لطيـف ظريـف..

لكـن هنـا، فـي منـى، لا يمكـن لتنكـره أن يخدعـك.. لا

تملـك هـذا الخيـار أصـلا.. لأن خداعـه لـك قـد يـودي برحلتـك كلهـا..

هذا الوحش هو ذلك الطاووس الكامن في أعماقك..

الطاووس الموجود عند أغلبنا، ولو بنسب متفاوتة..

طـاووس الأنـا.. الـذي يشـكل عائقـا أمـام إنسـانيتك كـي تتفاعـل مـع الآخريـن.. كـي تكمـل وجودهـا بهـم..

منـى.. يـراق فيهـا الـدم.. الذبائـح كلهـا كانـت تذبـح هنـا سـابقا..

لكـن الطواويـس لا بـد أن تذبـح هنـا أيضـا.. داخـل محـراب النفـس البشـرية، فـي منـى..

إن لم تذبح هنا، ربما لن تذبح أبدا..

* * *

«قيل عن سبب التسمية أيضا أن ابن عباس، رضي الله عنـه قـال: إنمـا سـميت منـى منـى؛ لأن جبريـل حيـن أراد أن يفـارق آدم عليـه السـلام قـال لـه: تمـن، قـال: أتمنـى الجنـة فسـميت منـى لأمنيـة آدم عليـه السـلام» ا

لا نعرف الكثير عن صحة الخبر..

لكـن إن صـح، يكـون هنـا هـو المـكان الـذي فـارق فيـه آدم جبريـل..

بعبارة أخرى..

هـذا هـو المـكان الـذي واجـه فيـه آدم الأرض منفـردا..

واجـه الحقيقـة القادمـة.. واجـه الحقيقـة المـرة.. حقيقـة أن عليـه أن يواجـه الأمـور منفـردا مـن الآن فصاعـدا..

وكان أن تمنى الجنة..

الجنـة التـي تمناهـا هنـا كانـت الجنـة التـي خـرج منهـا للتـو..

جنـة المسـاواة، جنـة «أن لا تجـوع فيهـا ولا تعـرى».. جنـة الحاجـات الأساسـية التـي تسـد متطلبـات للجميـع..

جنـة الالتـزام بالحـد المحـرم.. لا جنـة اللامقطـوع والـلا ممنـوع..

كان آدم يريد أن يعود إليها..

واليوم، في منى، كل هؤلاء لا يتمنون غير الجنة..

منـى، حيـث يفتـرض أن يكـون الجميـع فـي حالـة (مسـاواة).. ولـو مسـاواة مـن ناحيـة نقطـة الانطـلاق..

في منى، نتذكر..

تمنى آدم الجنة، وكان قد تركها للتو..

فـي منـى، نتمناهـا، ولكـن علينـا أن نتذكـر كيـف خسـرها آدم..

كيـف تسـلل إبليـس إليـه مـن حـب التميـز، مـن أن يكـون (ملـكا) مـن (أن يكـون مـن الخالديـن).. مـن تلـك الشـعارات التـي لا يـزال أتبـاع إبليـس يرددونهـا ويروجـون لهـا عبـر أسـماء جديـدة.. (الرقـي، التمـدن، التقـدم...).

خسرها آدم هناك.. وتمنى العودة لها هنا في منى..

فهل يعقل أن نتمناها هنا، بينما وعود إبليس تحتكرنا وتملأ كل حياتنا التي تركناها خلفنا في بيوتنا؟

هل يعقل أن نتمنى العودة لها، وكل حياتنا تسير عكس التخطيط لهذه الرحلة..

منى..

قد تكون منى مهبط الأمنيات..

لكنك لم تأت هذا الطريق كله كي تتمنى..

لقد جئت كي تحقق أمنياتك..

* * *

وعندما ينسحب الحجيج من منى، أو من عرفة، أو حتى من مزدلفة - التي لن يبقوا فيها أكثر من ساعات -، فإنهم يخلفون وراءهم (شاهدا) كبيرا على ذنب لم يفكروا ربما بالاستغفار منه، أو بعدم فعله..

يحتاج هذا (الشاهد) إلى حشد هائل من عمال النظافة لإزالته!

أتحدث عن شاهد مكون من أكوام قاذورات ستجدها في كل مكان من هذه الأماكن..

* * *

قد يخطر في ذهنك قبل الحج أن من يذهب إلى الحج يمثل (عينة) إيجابية من هذه الأمة.. لكن هناك ستكتشف أن الأمر أعقد من هذا الأمر، وأنهم قد يرغبون في آخرة أفضل، لكنهم لم يربطوا مصيرهم في الآخرة بواقعهم في هذه الحياة.. بمحاولتهم تغييره..

ستری في منى كل ما يعكس هذا الواقع السيئ..

سترى الأزبال والقاذورات في كل مكان.. **سيحدث ذلك من أمة قال لها نبيها إن إزالة الأوساخ عن الطريق جزء من عقيدتها وإيمانها..**

سترى قلة النظام والتدافع من أمة **لها سورة في كتابها اسمها سورة الصف..**

سترى الخوض في صغائر الأمور والتفاهات.. سترى وتسمع كل ما لا تتوقعه من أمة كانت يوما ما «خير أمة أخرجت للناس»..

* * *

في منى ستواجه الحقيقة التي كنت تحاول أن تغض الطرف عنها، نعم **كنت تعرف دوما أن الأمة ليست بخير، لكن على نحو ما كنت تعتبر** أن **الأمر لا يخصك.. نفسي نفسي..**

في منى، تصطدم أمنياتك بالواقع.. لا نجاة فردية هناك..ها أنت في الحج، في الطريق الذي تعتقد أنك ستنجو عبره، لكنك لست وحدك، لست في صومعة، لست منعزلا على قمة جبل، أنت هنا مع من حولك، بل إن نجاحك في تخالطك معهم وفق اللاءات الثلاثة للحج، ستحدد نجاحك في الحصول على ما تريد من الحج..

لو كان يمكن للنجاة أن تكون فردية (على نحو دائم) **لما كان هناك داع لأن تكون الفريضة جماعية، ولما كان هناك من داع لأن تكون هناك لاءات تنظم علاقتك بمن حولك**، كان يمكن أن يقال لك أن تؤثر العزلة، أو حتى

الصوم والانعزال والانشغال بالشعائر..

لكن لا.. ليس من صوم هنا، بل «أيام أكل وشرب» ()، وهذا يؤكد على الاختلاط (بضوابط اللاءات بالتأكيد)..

* * *

عن ابي الطفيل قال: سمعت ابن عباس، يسأل عن منى، ويقال له: عجبا لضيقه في غير الحج فقال ابن عباس: إن منى يتسع بأهله كما يتسع الرحم ().

كما يتسع الرحم!..

يا للكلمة الهائلة..

إنها الولادة التي تحدثنا عنها مجددا. الولادة التي هي الهدف الأقصى من الحج..

* * *

مفاتيح عرفة

المكان: عرفة..

الزمان: عرفة..

والمناسبة: عرفة أيضا..

أن تعرف أكثر..

* * *

عرفة..

جبل ما، ليس **عليك أن تعتليه، يكفيك أن تكون في محيطه لتكون قد ارتقيت أعلى مناسك الحج**، يكفيك أن تكون عند سفحه، لتكون قمته متاحة، كما لو أن العبرة هنا بتذكيرك بأن وجودك (الشخصي) على القمة ليس أمرا مهما، **بقدر وجودك ضمن أمة تكون على القمة..**

عرفة، ليس الأعلى بين جبال مكة حتما، رغم ذلك فإنك ستكون في (قمة العالم).. كما لو أن الشعيرة تعلمك **أن الأعلى ليس بالضرورة هو الأكثر ارتفاعا بعدد الأمتار، كما لو أن المكان يعيد تعريفك بوحدات القياس المهمة حقا..**

بوحدات قياسك الحقيقية..

* * *

لا يمكن أن تهرب من معنى كلمة عرفة..

لا يمكنك أن تهرب من **ارتباطها بالمعرفة..**

لا يمكنك أن تهرب **من ارتباطها بجبل.. بكل ما يحمله الجبل من شموخ وعلو..**

لا يمكنك أن تهرب من كونها الشعيرة الوحيدة التي **اختُصر الحج بها، الحج عرفة..**

تعيد ترتيب أفكارك كما لو أنها عدة التسلق التي تحتاجها لترتقي هذا الجبل..

المعرفة جبل، جبل ترتقيه بطريقة ما، وهذا هو جوهر الحج كله..

* * *

معرفة ماذا؟

في عرفة ثمة مجال لك كي تعرف نفسك أكثر..

كيف؟

طلب المغفرة بحد ذاته، يتطلب منك بطريقة ما مراجعة ذنوبك..

أنت تعرف تماما ما الذي تطلب المغفرة عنه..

ربما لا أحد يعرف عنك ما تريد مغفرته..

حياتك تستحق أن تراجعها..

حياتك تستحق أن تعرفها..

على عرفة ستعرف!

والمعرفة قوة!

* * *

انه أن تعرف نفسك..
وأن تعرف ربك، الذي تطلب منه المغفرة..

لا شيء يجعلك تعرف عظمته حقا، أكثر من أن ترى نفسك في ضعفها..

وان تعرف أيضا ذلك الإنسان الآخر الذي تتمنى أن تكون بعد أن ينتهي هذا اليوم..

* * *

عرفة هي قمة العالم بطريقة ما..

قمة العالم التي انطلقت إليها من **«فج عميق» قد**

يكون موجودا في تضاريسك الشخصية، في انكساراتك، في الكدمات الموجودة في داخلك والتي لا يراها ولا يعرف بوجودها أحد سواك..

عرفة هي قمة العالم..

ولديك اليوم، الزمان والمكان، الفرصة للتسلق والوصول لها..

لديك الفرصة لتضع عَلَمك هناك على القمة..

عَلَم «أن تعرف أكثر»..

* * *

لم يختصر الحج في أي شعيرة أو أي يوم، كما حدث مع عرفة.. حيث قال عليه الصلاة والسلام «الحج عرفة»..

لم يقل – عليه الصلاة والسلام - الحج طواف أو سعي أو رمي أو أي شيء آخر.. على أهمية كل هذا..

لكن عرفة، هي القمة التي تقود إليها كل الخطوات السابقة في رحلة الحج.. لا يمكن حذف شيء مما سبق لأنه لن يوصل إلى القمة.. لكن القمة قمة..

وعرفة ليست مكانا فحسب، بل هي مكان محدد في يوم محدد، إنها مثل الحج كله، تربط الزمان بالمكان.. وفي هذا (الزمان - المكان) يحدث أن..

ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبدا من النار من يوم عرفة وإنه ليدنو ثم يباهي بهم الملائكة

فيقـول: مــا أراد هـؤلاء؟)

إن الله يباهــي بأهـل عرفـات ملائكــة السـماء فيقـول انظـروا إلــى عبــادي هـؤلاء جاؤونـــي شــعثا غبـرا).

ليس العتق الذي لا يحدث في أي يوم آخر فقط..

بل أيضا الله يباهي الملائكة..

لم يا ترى؟

لا بـد أن يكـون ثمــة شــيء مــا فــي عرفــة يجعـل هـذا اليـوم يحصـل علــى أكبـر عتـق مـن النــار..

ويباهي الله فيه ملائكته..

نعـم.. ثمــة شـيء مــا فــي عرفــات.. علــى عرفـات.. لا يمكـن لهـذا الفضـل أن يكـون اعتباطـا، حاشـا لله، بـل لا بـد أن يرتبـط بأمـر مــا يخصنــا جميعــا.. يخـص البشـرية كلهــا فــي رحلــة بحثهــا عـن ذاتهــا، فــي رحلــة مخاضهــا نحـو الـولادة..

ثمة شيء في عرفات..

ولا بد أن نجده..

* * *

«أخــذ الله تبــارك وتعالــى الميثــاق مــن ظهــر آدم بــ (نعمــان) - يعنــي عرفــة - فأخــرج مــن صلبــه كل ذريــة ذرأهــا، فنثرهــم بيــن يديــه كالــذر، ثــم كلمهــم قبــلا قــال: *(ألست بربكـم قالـوا: بلـى شـهدنا أن تقولـوا يـوم القيامـة إنــا كنــا عـن هـذا غافليـن. أو تقولـوا إنمــا أشـرك آباؤنــا من

قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون) (الأعراف: ١٧٢)» [1].

إنها لحظة الميثاق إذن..

اللحظة التي أخذ فيها الله الميثاق من البشرية.. أخذ فيها منهم العهد على أنه ربهم..

«وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ» (١٧٢: الأعراف)

تلك الشهادة التي غرست في أعماقنا، في لا وعينا، في فطرتنا، ذلك الشيء الغائر فينا، الذي نجهل تفاصيله وكنهه.. ولكن نعرفه، شيء ما، **يقول لنا إننا نعرف أن ثمة إله واحد هو الخالق والمبدئ والمعيد، وأنه خلقنا كما خلق كل شيء، وأنه كلفنا بما لم يكلف به باقي خلقه..**

نعم.. شيء ما في أعماقنا يقول لنا على نحو غامض وشفاف، كما لو أنه كان في خلفية ذاكرتنا، في جيناتنا، في ذاكرة كرياتنا الدموية.. شيء يقول لنا إننا نعرف ذلك كما لو أننا شهدنا عليه قبل ولادتنا..

لكن الإنسان، كما تعلمون، سمي إنسانا لأنه ينسى..

وربما في هذه الحالة لم ينس.. بل تناسى.. ثم تراكمت على ذاكرته التفاصيل، ومن ثم حرص على عدم تذكير نفسه.. وانتهى الأمر بأنه لم يعد يتذكر..

لكن سيبقى شيء ما، حتى في صلف الإلحاد، في تعجرفه، سيكون ثمة شيء ما، ثمة إقرار عند الإنكار، ثمة ضعف في الصلف..

ثمة شيء.. نعرفه ولا نعرفه. ندركه دون أن نراه. نفهمه دون تفاصيل، نقوله، لكننا نعلم، أبجدياتنا لن تعبر عنه تماما.. ستفشل في ذلك..

ثمة عهد بيننا وبينه.. ميثاق.. أشهدنا على أنه هو الله ربنا.. وشهدنا..

ثم انسللنا من ذلك.

أنكرنا شهادتنا.

صرنا شهود زور..

* * *

لا نعرف كيف حدث ذلك. كيف أخذ الله من ظهور بني آدم، ذلك الميثاق..

لا نعرف كيف.

ولا نعرف متى..

ولكن نعرف أين..

نعرف أين حدث ذلك.

وهذه المعلومة قد تفتح الأبواب.. نحو المزيد..

* * *

على عرفة إذن، كما جاء في الحديث الصحيح ()..

علـى عرفـة حـدث هـذا الحـدث الهائـل، خـارج التاريـخ، فـي المنطقـة بيـن الوعـي والـلا وعـي، بيـن الإدراك والمعرفـة.. بيـن الذاكـرة الواعيـة والوجـدان، بيـن الحلـم واليقظـة..

على عرفة، حيث نقف اليوم، حدث ذلك..

الكيـف مجهـول، والميثـاق معلـوم.. والإيمـان بـه واجـب..

والمكان، هو في الذروة: عرفة..

* * *

الآية التي ذكر فيها ذلك الميثاق، في سورة الأعراف..

وسـورة الأعـراف، تتمركـز، فـي موقـف رئيسـي لهـا، **علـى أولئـك الذيـن يقفـون علـى (الأعـراف).. بيـن الجنـة والنـار..**

يقفـون علـى مرتفـع مـا.. فالأعـراف كل مـا ارتفـع مـن الأرض ()..

الأعراف، عرفة.. عرفات..

لا يمكن أن يكون ذلك صدفة.

حاشا لله..

لا صدفة..

تتناول سورة الأعراف قصة حياة البشرية منذ الخلق الأول.. منذ أن سجدت الملائكة لأبينا آدم، ورفض إبليس ذلك، ومن ثم طرده من الجنة «مذموما مدحورا» وقاسمه أن «يقعدن لنا على الصراط المستقيم»، ومن ثم غوايته لآدم وزوجه تحت شعار النصيحة، وطردهما من الجنة إثر ذلك، وهبوطهما إلى الأرض «بعضنا لبعض عدو»..

كل ما حدث وسيحدث على الأرض سيكون امتدادا لما حدث هناك، إبليس مصمم على الاستمرار في غواية آدم، بأسلوب النصح والإغراء بالتقدم والرقي غالبا، وآدم، على الأقل بعضا من أولاده، لا يزالون يسقطون، لا يزال بعضهم لبعض عدوا..

تأخذنا سورة الأعراف إلى قوم نوح، إلى عاد، إلى ثمود، إلى قوم صالح، إلى قوم لوط، إلى مدين، إلى قوم موسى..

في كل تلك المجتمعات، كان الصراع يأخذ أشكالا مختلفة، لكن لو أزلنا التفاصيل، لو محونا الأسماء والأماكن، لو نزعنا إلى التجريد، لوجدنا أن كل ذلك يشترك فيما يعود إلى ما حدث مع آدم.. وإلى القسم الإبليسي.. وإلى نتائج ذلك وتوابعه..

* * *

لكن ثمة شيئا مختلفا في سورة الأعراف، يمثل إضافة لما سبق في السور القرآنية..

إنه ذلك **السور..**

ذلك المرتفع الذي يقف عليه ناس لينظروا في اتجاهين

مختلفين، نحو مصيرين مختلفين..

«وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ . وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ . وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ . أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ» (الأعراف: ٤٦-٤٩)

على الأعراف يقفون، نظرة إلى من في الجنة.. نظرة طمع.. ونظرة إلى من في النار، نظرة خوف..

إنها نظرة إلى المستقبل، إلى المصير..

إنه استشراف لمستقبلك، لمصيرك، بمقارنة أعمالك بأعمال هؤلاء في مصيرهم الأخير..

على مرتفع ما، تقف، تنظر إلى الماضي وإلى المستقبل، تنظر إلى الخلف، لترى ما قدمت وما قدموا.. وإلى الأمام لترى نتائجهم، وتقارن ما قدمت بما قدموا..

الأعراف، المرتفع الذي يمكنك من تقييم نفسك وتقييم ما قدمت.. نظرة إلى المستقبل، ليس عبر كرة بلورية، بل عبر البصيرة الأكثر شفافية من البلور..

أعراف، وعرفة.. لا يمكن أن يكون هذا صدفة..

*　*　*

كيف نربط هذا بعرفة؟

سورة الأعراف، التي قدمت لنا من يقف على مرتفع ليرى نتائج الأعمال ومصائر الناس..

وقدمت لنا أيضا تلك الآية عن الميثاق، عن شهادتنا قبل أن نشهد.. **الآية التي نعرف الآن أنها حدثت على عرفة!..**

وعرفة جبل.. مكان مرتفع مثل الذي وقف عليه أصحاب الأعراف.. لا صدفة!

* * *

ترانا نقف على عرفة، لنرى أين أصبح ميثاقنا؟ وماذا فعلنا بشهادتنا؟.. ترانا سنكون حيث نطمع أو حيث نخاف أن نكون؟..

ترانا نقف على عرفة، لنستحضر كل تاريخنا، ونقارنه بتلك الشهادة، بذلك الميثاق الذي أخذ علينا..

ترانا نقف على عرفة، لنجدد الميثاق؟ لنجدد العهد.. لنؤكد للملائكة، الذين تساءلوا يوما ما عن مقدرتنا على تحمل المسؤولية، لنؤكد لهم أننا قادرون على أدائها..

ترانا نقف لنشهد مجددا أنه ربنا، هذه المرة بكامل وعينا، بكامل إرادتنا، مع سبق الإصرار والترصد.. ترانا نقف على عرفة لنثبت جدارتنا واستحقاقنا بما منحنا الله إياه في بدء الخليقة؟

تراه يباهي بنا ملائكته هنا على عرفة، لأننا جئنا لنؤكد ما قلناه في مطلع التاريخ، عند بدء الخليقة.. تراه يذكرهم بنا بلحظة التساؤلات.. تراه يذكرهم عز وجل، بأن أبناء آدم، الذين أمرهم الله بالسجود له، قد جاءوا

شعثا غبرا، ليؤكدوا «أولست بربكم؟.. بلى»..

*   *   *

ترانا نقف لنفي بنذورنا؟!

«ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ» (الحج: ٢٩)

ترى النذر هنا هو ذلك العهد القديم، الذي نرجع هنا لكي نثبت أننا أوفياء له؟!

*   *   *

«لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ * ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» (البقرة: ١٩٨-١٩٩)

أفيضوا من حيث أفاض الناس.. لماذا؟

لأن قريش كانت تستنكف أن تقف بعرفة كما يقف بقية العرب، فكانت تقف في مزدلفة.. وتخرج من مزدلفة..

ذلك التكبر القريشي كان لا بد للشعائر أن تنسفه من جذوره.. أفيضوا من حيث أفاض الناس، نقطة انتهى..

لكن التكبر لن يكون فقط في هذه الجزئية.. وملأ قريش يمكن له أن يعود ليظهر ويتمظهر في أشكال مختلفة.. ربما لم يعودوا يقفون في مزدلفة، لكن وقفتهم في عرفة صارت محاطة بمظاهر الأبهة والترف والتعالي.. هناك من يفتتح بوفيه يضم ما يكفي لإطعام

قبيلـة مـن الجيـاع لمـدة سـنة، ويملؤهـا بمـا لـم تذقـه هـذه القبيلـة أو لـم تسـمع بـه أصـلا مـن روبيـان وأطعمـة فاخـرة مترفـة، وكل ذلـك مـن أجـل بضـع سـاعات يفتـرض أن يركـز فيهـا الإنسـان علـى (كلـه) لا علـى بطنـه..

نعم، الملأ لم يعد يمكنه أن لا يقف في عرفة..

صار يقف فيها، لكن لا يقف مع الناس..

يخرج منها معهم، لكن هل يفيض حقا؟

* * *

الإفاضـة فقهـا هـي الخـروج مـن عرفـة إلـى مزدلفـة.. وأفـاض القـوم مـن مـكان، اندفعـوا وتفرقـوا..

لكـن الإفاضـة أيضـا هـي مـن الفعـل (فـاض) وتعنـي (كثـر)..

أليس هذا ما يحدث حقا في عرفة؟

ألا تخـرج مـن عرفـة وأنـت تـكاد تفيـض علـى العالـم بمـا عرفـت؟.. ألا تتدفـق مـن أطرافـك ومـن أنفاسـك طاقـة جديـدة، روح جديـدة، لوليـد جديـد؟

تفيـض الجمـوع مـن عرفـة، لـو عرفـت هـذه الجمـوع حقـا مـا الـذي فـي عرفـة، لـكان هـذا الفيضـان هـو أعظـم مصـدر طاقـة فـي العالـم.. أعظـم مصـدر طاقـة للبنـاء، لهـدم مـا يجـب هدمـه، لإعـادة بنـاء العالـم علـى النحـو الـذي ينسـجم مـع شـهادتنا علـى قمـة العالـم..

أو: كان يمكن أن يكون كذلك..

تعرفـون كيـف سـارت الأمـور.. كيـف فرغـت الشـعائر

من معانيها، حتى صارت حركات رياضية نؤديها دون أي فهم.. **وصار الفيضان، مجرد غثاء، كغثاء السيل..**

* * *

ثم أتى به عرفة فقال: هذه عرفة. قال ابن عباس: أتدري لم سميت عرفة؟ قال: لا. قال: لأن جبرائيل عليه السلام قال له) أعرفت؟)

أعرفت؟

في منى، تمنى آدم.. تمنى أن يعود للجنة..

في عرفات، عرف إبراهيم الدرب إلى هناك..

بين الأمنيات، والمعرفة، ثمة قمة..علينا أن نعتليها...

* * *

مفتاح مزدلفة

ليس في مزدلفة من الأعمال ما يكاد يكون خاصا بها..

تصلها، تصلي المغرب والعشاء جمعا بأذان واحد، ثم تنام حتى الفجر.

للوهلة الأولى سيبدو ألا شيء هناك.. بضع ساعات لا أكثر في مزدلفة..

لكن ستذكر أن التنظيم، والالتزام بالتعليمات، هي جزء

أساسي من الشعائر، جزء أساسي مما يريد الحج أن يعلمك إياه..

مزدلفة هي جزء من تدريبنا على أن نلتزم بسنته عليه الصلاة والسلام، توقيت الدخول إليها، الخروج منها، المبيت فيها، **كلها جزء من (الخطة العسكرية) التي يتضمنها الحج، جزء من تعليمك الانضباط والالتزام..** ستفعل ما فعله الرسول الكريم كجزء من التزامك بالخطة، خطة المواجهة مع ذاتك، خطة التدخل السريع لإنقاذ ذلك الشخص الذي تريد إنقاذه.. الشخص الذي تريد له أن يولد..

الحج عرفة نعم، والذروة الأعلى التي في الحج قد تم المرور بها للتو، لكنك في مزدلفة ستثبت أن الأمر لم ينته، وأن التزامك بما فعله الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام وبسنته الشريفة هو جزء من العهد الذي قطعته للتو على عرفة.. شهادتك التي أعدتها بكل وعيك، والتي شهدت لله فيها أنه خالقك وربك وأن الملك والحمد له، هذه الشهادة، تتضمن فورا، وتلقائيا، أن تلتزم بسنته عليه الصلاة والسلام..

هل ستقول أن مكانا محصورا يجب الدخول والخروج منه خلال بضع ساعات سيكون أمرا صعبا على الملايين التي تأتي الآن لكل سنة، وأن الأمر لم يكن كذلك في عهده عليه الصلاة والسلام؟

نعم.. وهذا امتحان آخر، **أن تدير هذا الأمر، أن تثبت أن المسلمين لم يزيدوا فقط في العدد بل نموا أيضا في قدراتهم التنظيمية.. (امتحان نعرف نتائجه الحالية للأسف!)**

مزدلفة هي امتحانك الأول..

ستكون حياتك اللاحقة كلها (مزدلفات)..

* * *

مزدلفة تثبت لك موقعك من الإعراب..

تثبت لك حقيقة ما فعلت..

هل أزلفك الحج مما يجب أن تكونه؟ من الشخص الذي خلقت لتكونه؟ من الخليفة في الأرض؟ أم أنك جعلته زلفى لمغفرة الذنوب فحسب، ومن ثم العودة لما كنت عليه؟

مزدلفة تجربة أولى.. (بروفة) لما سيحدث لاحقا..

* * *

مزدلفة هي امتحان تخوضه وانت تقوم بدور (رماة جبل أحد)..

المعركة تكاد تكون قد انتهت.. والمهمة تكاد تكون أنجزت.. والغنائم أمامك.

هل ستخالف أمره عليه الصلاة والسلام وتتسبب في الهزيمة؟ أم أنك ستتعلم من الدرس، وتثبت؟

مرحبا بكم في مزدلفة..

بروفة لحياتك المقبلة كلها..

مفتاح رمي الجمرات

أول ما ستفعله عند وصولك منى قادما من مزدلفة، صبيحة يوم العيد، هو أن تقوم برمي الجمرات، في جمرة العقبة..

اليوم يوم عيد، لكنك ستجمع الحصى، وتذهب لرميها..

لا تزال على خطى إبراهيم.. لا تزال تتلمسه في دربك..

«إنَّ إبْرَاهِيمَ لَمَّا أُمِرَ بِالْمَنَاسِكِ عَرَضَ لَهُ الشَّيْطَانُ عِنْدَ الْمَسْعَى فَسَابَقَهُ فَسَبَقَهُ إبْرَاهِيمُ ثُمَّ ذَهَبَ بِهِ جِبْرِيلُ إلَى جَمْرَةِ الْعَقَبَةِ فَعَرَضَ لَهُ شَيْطَانٌ - قَالَ يُونُسُ الشَّيْطَانُ - فَرَمَاهُ بِسَبْعِ حَصَيَاتٍ حَتَّى ذَهَبَ» (..

يعتقد الشيطان أن محاولته القديمة مع آدم تنجح دوما.. وهي تنجح فعلا في الكثير من الأحيان كما نعرف من التاريخ الشخصي والتاريخ العالمي..

لكننا نستحضر اليوم، في يوم العيد، ليس أبانا الذي غرر به، بل نستحضر أبانا الذي انتصر.. في العيد نحن أولاد إبراهيم الذي لم يتمكن إبليس من غوايته، في العيد نعيد درب إبراهيم.. لا درب خروج آدم من الجنة..

في صبيحة العيد، وبعد أن خرجت أقوى وأعرف من عرفات، بعد أن جددت شهادتك هناك، تستعيد إبراهيم الذي..

«وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ» فأدى ذلك إلى..

«قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا» (البقرة: ١٢٤)

يريدك إبليس أن تكون مثل

«وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا» (طه: ١١٥)

ثمة خيار، ثمة مفترق طرق في كل خطوة نخطوها في حياتنا..

بعد مزدلفة، أنت أمام هذا الخيار مجددا، أن تخطئ خطأ آدم، وتضعف أمام الشيطان.. أو أن تتم كلمات إبراهيم..

أمام الجمرة ـ وأنت ترمي الحصى، يفترض أن تكون قد حسمت الأمر والقرار مع ذاتك..

ليس مجرد حصى ترميها..

بل قرار اتخذته، إعلان واضح للحرب على الشيطان، تعلنه وأنت مسؤول عن نتائجه..

*　*　*

ها أنت ترمي الشيطان، ترجمه بالحصى التي في يدك..

وأنت تعرف أن هذا الشيطان يجري منك، من كل ابن لآدم مجرى الدم ⁽¹⁾.

تعرف إذن أنك إنما ترجم جزءا منك..

نعم، الشيطان يجري منك مجري الدم.. الشيطان جزء منك، لا يمكن للشيطان أن ينتصر عليك، أن يخدعك إلا بمداخل هي جزء منك..

لا يمكن أن يدخلك إلا من خلال ثغرات معينة.. ربما هي جزء من طبيعتك البشرية، ربما يمكن أن تكون مصدرا للقوة لو أحصنت، لكنها ستكون مداخلا للشيطان، وبالتالي لمهالكك، لو تركتها دون تحصين..

كل حكايات هزيمتنا أمام إبليس بدأت بباب مفتوح، بثغرة لم تحصن جيدا، بسد لم يحسن بناءه..

تسلل إلى آدم بثغرة **الرغبة في الترقي**.. «أن تكونا ملكين» (الأعراف: ٢٠)

أو **الرغبة في الخلود**.. «أو تكونا من الخالدين» (الأعراف: ٢٠)

أو ثغرة **الرغبة في التملك** «هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى» (طه: ٢٠)

ويتسلل إلينا دوما بثغرات مماثلة..

كم تسفح قيمنا باسم الرغبة في التقدم والرقي والتطور.. كم خدعتنا شعارات كهذه وجعلتنا نسقط في مهالك وفي درك أدنى من درك..

إنه الفخ الإبليسي ذاته، بأغلفة جديدة ومتنوعة..

* * *

ترميه بالحصى الصغيرة في يديك..

ليست (حجارة كبيرة)، بل صغيرة، أكبر من حبة الحمص وأصغر من حبة البندق، ليس فقط لأن الحجم الأكبر قد يؤذي من حولك، ولكن لكي تدرك أن الأثر التراكمي – البطيء ولكن المستمر - هو ما يجدي على المدى البعيد..

الحجر الكبير لا يضر بين الحين والآخر في هذه المواجهة، بل إنه قد ينفع، **لكن الأساس هو تلك الحصى الصغيرة.. الجمرة التي لا تنطفئ.. تبقى تقيد.. تنبض بالنار والنور في أعماقها..**

الجمرة! أنت ترمي بالجمرة على الشيطان، الشيطان الذي يجري منك مجرى الدم، ترمي بالجمرات على الحائط أمامك، لكنك تعرف أن مواجهتك الحقيقية، أن ميدان رميك وتصويبك الحقيقي هو في ذاتك، وأنك بينما ترمي الجمرة بيدك بعيدا نحو الحائط، فإنها يجب أن تسقط فيك.. مرماك الحقيقي هو في مجرى الدم منك..

ليس ذلك يسيرا قط، كقابض على الجمر، سترمي بالجمر على بعض من ذاتك..

* * *

سترجم بالجمرات ضعفك.. سترجم كسلك.. تخاذلك..

سترجم بالجمرات (أناك) التي تمنعك من أن تكون جزءا نافعا من الـ (نحن).

سترجم غضبك فيما لا يستحق الغضب، وبرودك على ما يستحق الانفجار والثورة..

سترجم سذاجتك.. جهلك.. وتصورك أنك الأعلم دون علم.

سترجم شعورك بالنقص تجاههم، وتجاه كل ما ينتجون ولو كان السم الزعاف..

سترجم نسيانك. سترجم تناسيك. سترجم نكرانك. سترجم إنكارك. سترجم هروبك المستمر من الحقائق. سترجم دفنك لرأسك في الرمال كي لا ترى الحقيقة..

سترجم عبوديتك لشهواتك.. سترجم وجهك الآخر الذي لا يعرفه أحد سوى عالم السر والعلانية..

قائمة رجمك طويلة.. ولعلك أنت من يعرفها، أنت من يجب أن يحددها..

*   *   *

سبع جمرات في يدك؟

لن تهرب هنا من معنى الرقم سبعة، **الاستمرارية والدأب**، طفت سبعا وسعيت سبعا، في إشارة لطوافك وسعيك في كل حياتك، واليوم ترمي سبعا في إشارة إلى أن معركتك مع الشيطان ستبقى مستمرة.. إنها معركة دائمة.. دوام الطواف والسعي.. لا حياد في المعركة.. كما لا هروب من الطواف..

إن لم تطف بالبيت، فستجد نفسك تطوف بغيره، ربما بيت آخر مبني على قيم أخرى ومنظومات حضارية مختلفة.. حتى لو توهمت أنك لا تطوف إلا حول (حريتك الشخصية)- بل بالذات لو توهمت ذلك!

وإن لم تسع بين الصفى والمروة، **فستجد نفسك غالبا**

تسعى في سياق آخر، بين جبلين ربما يخفيان خلفما هاوية بلا قعر..

كذلك إن لم ترم، في حياتك، هذه الحصى نحو ما يجب رميه، إن لم تواجه الشيطان عند مداخله في ذاتك.. فستجد نفسك أسيرا عنده بلا شك..

لا حياد في هذه المعركة.. **لا يمكن لك أن تعقد هدنة..**

اي اتفاق لوقف إطلاق النار، سيكون معناه، أنك خدعت وغرر بك.. كما حدث مع أبيك، يوم كان ما كان..

* * *

تحاصرك الحصى السبع ومعانيها.. تذكرك أن الحصى التي ترجم بها، هي حصى تبني بها أيضا، وأن ما يمكن أن تهدم به، هو ذاته ما يمكن أن تبني به..

تذكرك الحصى بالوجه الآخر لعملية البناء، الهدم.. لا يمكنك أن تبني حقا دون أن تهدم بعض ما يجب هدمه.. ولا يمكن أن تهدم فقط، دون أن تربط مشروع هدمك بالبناء..

* * *

ثمة واقعة صغيرة حدثت عند رمي الجمرات..

تقدم رجل ليسأل الرسول عليه الصلاة والسلام سؤالا أثناء رمي الجمرات.. فأعرض عنه الرسول إلى أن أنهى الرمي، ثم أجابه..

نعرف السؤال والجواب، فهو مما اشتهر على الألسنة..

لكننا نسهو عن السياق..

نــادرا مــا نتنبــه إلــى أن هــذا الجــواب، هــذا الحديــث الشـريف، قـد قيـل فـي رمـي الجمـرات، وأن هـذا قـد يمتلـك دلالات للجـواب الشــريف..

عَـنْ أَبِـى أُمَامَـةَ قَـالَ عَـرَضَ لِرَسُـولِ اللَّهِ - صلـى الله عليـه وسـلم - رَجُـلٌ عِنْـدَ الْجَمْـرَةِ الأُولَـى فَقَـالَ يَـا رَسُـولَ اللَّهِ أَيُّ الْجِهَـادِ أَفْضَـلُ فَسَـكَتَ عَنْـهُ فَلَمَّـا رَأَى الْجَمْـرَةَ الثَّانِيَـةَ سَأَلَهُ فَسَكَتَ عَنْـهُ فَلَمَّـا رَمَـى جَمْـرَةَ الْعَقَبَـةِ وَضَـعَ رِجْلَـهُ فِـى الْغَـرْزِ لِيَرْكَـبَ قَـالَ «أَيْـنَ السَّـائِلُ». قَـالَ أَنَـا يَـا رَسُـولَ اللَّهِ قَـالَ «كَلِمَـةُ حَقٍّ عِنْـدَ ذِى سُـلْطَانٍ جَائِـرٍ».

ليـس صدفـة أن يكـون سـياق حديـث «أفضـل الجهـاد كلمة حـق عنـد سـلطان جائـر» قـد حـدث عنـد رمـي الجمـرات..

وأنــه عليــه الصــلاة والســلام لــم يــرد علــى ســؤال الســائل «أي الجهـاد أفضـل؟» إلا بعـد أن أكمـل الرمــي..

كلمـة الحـق عنـد سلطان جائـر، هـي جـزء مـن المعـادل الواقعـي الحياتـي لشـعيرة «رمـي الجمـرات»..

* * *

مفتاح النحر

تقديــم الذبائـــح أمــر تشـــترك فيـــه الكثيـــر مـــن الأديـــان الســـماوية.. بـــل وحتـــى غيـــر الســـماوية..

وهـو أمـر يجـب أن لا يشـعرنا بالحـرج ولـو قليـلا.. فنحـن نؤمـن أن الأصـل فـي الفطـرة هـو التوحيـد، أن كل انحـراف

لاحق وطارئ على الفطرة قد يحمل معه جزءا مما أقرته تلك الفطرة، سيوظف حتما في اتجاه خاطئ، لكن هذا لن يجعلنا (نخجل) أو (نشكك) في أمر كان موجودا بالأصل فقط لأن الوثنيين صاروا يقلدونه.. فلنتذكر أن الوثنيين يتنفسون أيضا..

الأضاحي في الإسلام مختلفة، في الديانات الوثنية كانت الذبائح تلطخ الأوثان، وكان الكهنة ينالون اللحوم، حتى في اليهودية، كان الكهنة ينالون الحصة الأكبر من الذبائح، وكان لا بد أن تقدم في الهيكل، ومن ثم فقد توقفت تماما بسبب اختفاء الهيكل منذ القرن الميلادي الثاني..

لكن في دين بلا هياكل ولا كهنة، جعلت الأرض كلها مسجدا له وطهورا، فإن الأضحية التي تذبح لا تقيد ببناء أو مسجد، بل تذبح في منى، في أرض منى في الهواء الطلق..

ولا كهنة هناك يستأثرون بالذبائح.. ليس سوى التكافل الاجتماعي، ليس سوى اللحم يوزع على الفقراء..

هذه الشعيرة إذن تسفك دم الحيوانات، لكي تحقق (الشبع) في هذا العالم المليء فقرا وجوعا وظلما وتناقضا، العالم الذي يموت فيه البعض من أمراض السمنة أو أثناء عمليات شفط الدهون والتنحيف، وآخرون يموتون جوعا..

* * *

الشعيرة تذكرك أيضا بحقيقة أخرى مرتبطة بما سبق..

مجـرد قيامـك بذبـح مخلـوق آخـر مـن مخلوقـات الله، **تذكيـر لـك بموقعـك فـي هـذا الكوكـب.. موقـع السـيادة المشـروطة، موقـع الاسـتخلاف المحـدد بصلاحيـات لا يمكـن تجاوزهـا..**

نعـم.. أنـت المخلـوق السيد فـي هـذا العالـم.. أنـت المخلـوق الأهـم، سـخرت الأرض بمواردهـا وثرواتهـا، بباطـن خيرهـا وظاهره لتكون تحت تصرفك فيما خولـت فيـه..

أنـت المخلـوق الـذي سـجدت لـه الملائكـة، وكان ذلـك علامـة رمزيـة علـى تسـخير كل المخلوقـات لـك، ليـس بالمطلق، وليس كمـا تشـاء، وليس دون ضوابط أو حدود، لكـن كل مـا فـي الأرض هـو ضمـن امتحانـك، ضمـن مسـؤوليتك..

ضمن اختبارك..

هل سيقول لك أحدهم شيئا عن الرفق بالحيوان..

نعم، **الذبح برفق ورحمة حسب الشروط..**

لكـن أي تمـاد فـي موضـوع الرفـق أكثـر مـن ذلـك، سـيكون مساسـا بوظيفتـك.. بمكانـك.. بمكانتـك..

بالإنسان فيك..

إن تجـاوزت الشـروط والصلاحيـات، وإن تنازلـت عنهـا، في الحالتين سيكون هناك مساس لما خلقت لأجله..

* * *

والنحـر يربطنـا بذلـك الموقـف الإبراهيمـي الـذي لا ينسـى، المحفـور فـي ذاكرتنـا ووعينـا..

يـوم (أسلم) هـو وابنــه.. يـوم وصــلا سـوية للـذروة فـي التسـليم لأمـر الله..

يوم (وتله للجبين).

ذلك الموقف الهائل، سيأتي ليحضـر، ليكـون شـاخصا، فـي يـوم العيـد.. يـوم النحـر..

تعودنـا أن نقبل الأولاد يـوم العيـد.. أن ندخل علـى قلوبهم الفرحة..

لكـن النحـر، يذكرنـا بمـا هـو أهـم مـن ذلـك، يذكرنـا بمـا يجـب أن نربـي أولادنـا عليـه، نتخـذ مـن أولادنـا فـي الغالـب (قضيـة) نعيـش مـن أجلهـا، قضيـة تغـرق فـي التفاصيـل: مأكلهـم مشـربهم ملبسـهم صحتهـم لهوهـم تعليمهـم..

لكن ما هو أجدر بالاهتمام هو أن ننشئهم على **قضية**.

ننشـئهم - وأنفسـنا - علـى الأولويـات التـي تجعـل طاعـة الله مقدمـة علـى كل شـيء آخـر.. لا يقـول لـك أحـد اذهـب واذبـح أبنـاءك، فمـا حـدث فـي الوحـي كان امتحانـا لإبراهيم وابنـه، وهـو مثـل ودرس لنـا.. درس لكـي تعـرف بمـا يجـب أن تضحـي بـه، درس لكـي تعـرف مـا الـذي يجـب تقديمـه علـى المذبـح، درس لكـي تـدرك معنـى مـا تقـول عندمـا تقـول «إن صلاتـي ونسـكي ومحيـاي ومماتـي لله رب العالميـن».. لأن هـذه الجملـة تتضمـن (أولادك) أيضـا.. هـم أيضـا، مثـل صلاتـك ونسـكك ومثـل كل محيـاك ومماتـك، لله.. لكـن الله كفـاك صعوبـة تجربـة أن تضعهـم علـى المذبـح، كل مـا يجـب أن تفعلـه هـو أن تضـع كل مـا يمنعهـم مـن أن يكونـوا كمـا أراد الله علـى المذبـح.. كل مـا يجـب أن تفعلـه هـو أن تربيهـم ليكملـوا الـدرب، ليكونـوا كمـا أراد لهـم خالقهـم أن يكونـوا..

* * *

مفتاح التحليق

ثم سيأتي الموس ليحلق لك شعرك.

عندما يمر الموس على رأسك، تشعر انه يزيح أكثر من مجرد الشعر.. تشعر أنه يقشرك طبقة تلو أخرى..

يتساقط شعرك على كتفيك.. فتتساقط معه أشياء أخرى.. **تشعر أن مشاعر قديمة لك تسقط، تشعر أن ذنوبا لك تسقط.. يمر الموس ليكشط شعرك، فتشعر أن ما يكشط حقا هو ما ران على قلبك.. تشعر أن ما يزال ليس الشعر، بل ذاك الصدأ المتراكم على قلبك، على عقلك، على روحك.. كنت تعتقد أن هذا الصدأ قد صار جزءا منك، كنت قد توهمت أنه صار جزءا من** روحك، كنت قد فقدت القدرة على التمييز بين ما هو أنت حقا، وبين ما تراكم عليك..

يمر الموس، رأسك يصبح عاريا للشمس والهواء، تستنشق الهواء على نحو أعمق، تكاد تلهث.. **تكاد تحلق عاليا.. كما لو أن شعرك كان قيودا تشدك إلى الأرض..**

لكن لا.. ليس الشعر الذي زال هو الذي كان يمنع كل هذا..

بل هو الشعور المرتبط بالشعيرة الذي يجعل من حلق الشعر بابا إلى التحليق إلى الأعلى..

نعم، ثمة شعائر لقص الشعر في العديد من الأديان، سماوية أو غير سماوية، لكنها ترتبط غالبا ببلوغ سن معينة (ثلاث سنوات عند ذكور اليهود مثلا).. أما هنا،

فأنـت تؤشـر لـولادة جديـدة بمعـزل عـن عمـرك السـابق، لقد ولـدت للتـو، وهـذه الشـعيرة تذكـرك بأنـك إنسـان جديـد، يخـرج مـن الإحـرام وقـد نـزع عنـه حياتـه السـابقة وذنوبـه السـابقة وكل مـا شـده إلـى ذلـك الإنسـان الآخـر الـذي كانـه..

* * *

أيـام فقط ويعـود الشـعر لينمـو كالزغـب.. دعـه ينمـو فـي جسـد إنسـان جديـد.

دع هـذا الشـعر الجديـد، يكـون شـاهدا علـى شـخص آخـر.. شـخص أفضـل، أقـرب إلـى ذاتـه.. أقـرب إلـى مـا خلـق لأجلـه..

* * *

مفتاح طواف الوداع

تطوف وداعا..

لكن قلبك لا يحتمل حتى الفكرة..

الوداع؟!..

حقـا؟! بعـد أن وجـدت بيتـك العتيـق!.. بعـد أن وجدتـه بعـد سـنوات مـن الترحـال والسـكن فـي بيـوت اسـتأجرتها – حتـى لـو كانـت قـد سـجلت باسـمك!..

بعـد أن وجدتـه بشـق الأنفـس، ذلـك البيـت الـذي وضـع منـذ بـدء التاريـخ لأجلـك، هـل تتركـه الآن؟..

قلبك، لا يعقل هذا..

رغم كل الشوق الذي لا يمكن إنكارك له لكل أحبابك في عالمك السابق، إلا أن قلبك لا يعقل أنك ستنتزع نفسك من بيتك (القديم)..

لكن هذا هو طواف الوداع..

الوداع جزء من الشعائر إذن، رفعت الأقلام وجفت الصحف..

لا خيار..

أن ترحل عن البيت العتيق، نحو بيتك الجديد، نحو العالم الذي يجب أن يعاد بناؤه على أسس جديدة..

هذا الرحيل هو جزء من الشعائر نفسها.. لم تمر بكل ما مررت به من علامات على الطريق لكي تختزن تجربتك لنفسك، لم تولد من جديد لكي تصاب بموت المهد الفجائي)..

لم تولد من جديد، لكي تشارك في عملية قتل الإنسان الوليد في داخلك، وتعيد ذلك الذي جئت أصلا إلى الحج كي تتخلص منه..

الوداع جزء من الشعائر.. جزء من أن تكتشف إن كنت قد نلت ما جئت من أجله..

لا يمكنك اكتشاف ذلك وأنت في الحرم..

لا يمكنك أن تعرف ذلك إلا عندما تلتحق بالعالم.. **لكي تجرب الإنسان الجديد الذي يفترض أن يكون قد ولد بين جنبيك..**

قلبك لا يعقل الفراق..

لكن عقلك يعقله!..

تطوف وداعا، وتهمس في نفسك، إلى اللقاء!

*   *   *

لن يصلح فرد العالم لوحده.

لكن العالم لن يصلح إذا تصرف كل فرد، كما لو أن الأمر لا يعنيه..

كما لو أنه سيكفيه أن يحج، وينتهي الأمر..

الحج يقيم عليك الحجة: هذا العالم، يجب أن تنقذه، لو أردت النجاة..

على الأقل أن تحاول ذلك..

*   *   *

وفي موروثنا، ثمة واقعة أخرى، ربطت الولادة بالحج، بطريقة ما..

.. أن ابن عمر رضي الله عنهما رأى رجلا يطوف بالبيت حاملا أمه، وهو يقول: أتريني جزيتك يا أمه؟ فقال ابن عمر رضي الله عنهما: «أي لكع ولا طلقة واحدة» !.

يحملها على ظهره، ويطوف بها، يسألها، تراني وفيتك حقك؟

يقف له ابن عمر بالمرصاد، أي لكع، ولا طلقة واحدة..

واللكع هو اللئيم صغير العقل والعلم.

إنه يعتقد أن أدائه لبعض الشعائر سيسقط عنه دينه، وحمله، ومسئوليته..

إنه يعتقد أن **الشعائر تسقط ما يجب فعله، بدلا من أن تكون تقوية لنا للمزيد من الفعل والعمل والأداء..**

لكع، لئيم في العطاء، يحسبها مثل المرابي اليهودي، يريد أن يقدم بالضبط أقل ما يمكنه، مقابل العطاء الأقصى الذي حصل عليه..

لكع، صغير في العقل والعلم، **لا ينظر إلى الشعائر إلا كحركات بدنية، يؤديها وينتهي الأمر، بدلا من أن يؤديها ليبدأ الأمر..**

لكع هذا، هل يذكركم بأحد؟

أم هل يذكركم بمن يفعل أقل من ذلك؟

ليس مع أمه فقط.. بل حتى مع نفسه..

وايضا، من باب أولى.. مع أمه الأخرى.. أمته..

لكع المعاصر، يؤدي الشعائر ليتخلص من واجبه، حتى تجاه نفسه.. وبالتأكيد نحو أمته..

* * *

المشكلة أن لكع، يعتقد أنه قد أدى قسطه للعلي، لمجرد تمكنه من أداء شعائر الحج..

* * *

بين لكع الذي تقمصناه بأقصى المعاني..

وبين ذاك الذي حج فعاد كما ولدته أمه، بون شاسع، مسافة شاسعة..

بين الحج كما يجب أن يكون.. وكما جعلناه يكون..

*　　*　　*

في كل موقف من مواقف الحج، كان ثمة مفتاح..

لكن هذا المفتاح لا يفتح لك الحج ومعانيه ومعاني أركانه فحسب..

بل يفتح لك الآفاق الجديدة في نفسك..

مفاتيح الحج تفتح لك الإنسان الجديد في داخلك..

تفتحك عليه..تفتحه لك..

تساهم في أهم فتح يمكن أن تخوضه في حياتك..

فتح نفسك..فتح نفسك لما يجب أن تكونه..

وبعدها يمكن للعالم أن يتغير..

الفهرس

عن مبادرة قيام – القرآن لأمة قائمة

هذه المبادرة هي المظلة الرسمية الراعية لأعمال الدكتور أحمد خيري العمري.. المقروءة والمسموعة والمرئية والنشاطات الفكرية الملازمة وهي التي تمتلك حقوق نشر وتوزيع أو إعادة نشرو توزيع جميع الأعمال القديمة والصادرة حديثا وبكل اللغات وبكافة أنحاء العالم.

إصدارات الكاتب:

- البوصلة القرآنية
- ليلة سقوط بغداد
- سلسلة ضوء في المجرة (صدر منها):
  - كش ملك
  - أدرينالين
  - يوم، شهر، سنة
  - الذين لم يولدوا بعد
  - تسعة من عشرة
  - غريب في المجرة
- الفردوس المستعار والفردوس المستعاد
- أبي اسمه ابراهيم (رواية للناشئة)
- سلسلة كيمياء الصلاة (5 كتب)
- الواح ودسر
- استرداد عمر من السيرة إلى المسيرة
- سيرة خليفة قادم

بخصوص للنشر والتوزيع الرجاء مراسلة المبادرة على quran4qyam@gmail.com

كل كتب الحج الأخرى وأشرطتها ومطوياتها وكتيباتها،

ستقول لك ماذا تفعل في الحج، وبالتفصيل.

هذا الكتاب، يقول لك: لماذا تفعل ما تفعله.

ليس لأنك معترض..

بل لأنك عندما تعرف لماذا، عندما تفهم لماذا،

سيكون أداؤك مختلفاً،

سيكون حجك جامعاً بين جوارحك وعقلك،

ستتأمل في معانٍ لم تفطن لها من قبل،

وسيكون تأملك هذا مدخلاً لخشوع من نوع آخر،

خشوع الفهم الواعي المدرك.

كثيرون يذهبون إلى الحج، لكن لا يدخلونه،

يؤدون مناسكه كما يجب، ولكن في غمرة انشغالهم بالأداء،

لا يملكون أن يفهموه، بينهم وبين فهم كل شعيرة ثمة باب مغلق..

هذا الكتاب، يمنحك مفاتيح هذه الأبواب المغلقة..

يساعدك على أن تفهم حجك، لكي يكون أفضل.





